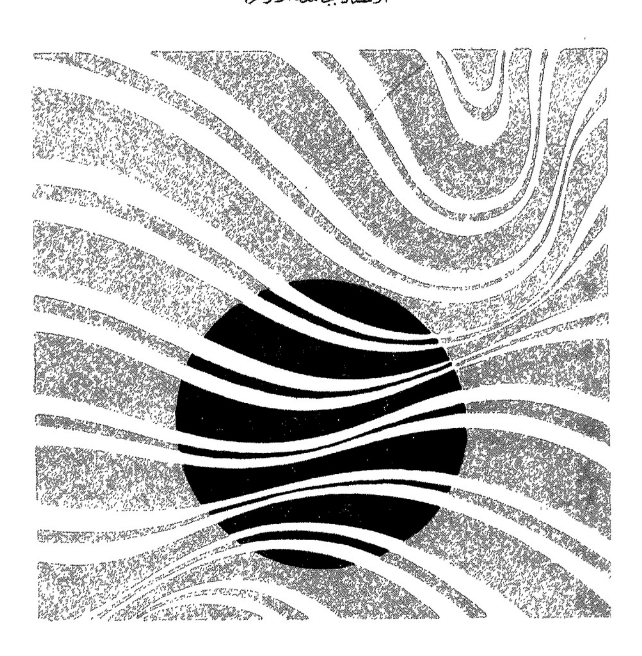
البحث عن الدين

دكتور ابراهيم على أبو الخشب
الأستاذ بجامعة الأزهر



البحث عن الدين

دكتور ابراهيم على أبو الخشب
الأستاذ بجامعة الأزهر

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

البحث والدراسة وطلب العلم والمزيد من المعرفة عبادة لله جل جلاله يثيب عليها وترتفع بها درجة العبد عنده يوم القيامة « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وهذه قضية لا يختلف فيها أحد ، ولعل السبب فى ذلك أن العالم يهذب العلم خلقه . ويقوم طبعه ، ويرقق إحساسه ، ويرقى طموحه ، ويقلم أظافره ، فلا يصدر عنه إلا الأدب ، ولا يجىء منه إلا الخير ، ولا يتخلف عنه إلا الأثر الطيب الذى يتركه فى ضمائر البشرية ، أو فى نفوس أبناء جلدته من هؤلاء الناس الذين تربطهم به هذه الدنيا التى يعيشون فيها ، أو الأرض التى يدرجون عليها ، وهذه هى الحكمة الظاهرة من العمران واجتماع هذا الخلق بعضهم مع بعض ، تصلهم أسباب ، وتجمعهم أواصر ، وتقضى باشتباكهم أغراض ومنافع ، لابد منها ، ولا غنى عنها ، إلى جانب كون هذا

الصنف من الآدميين يسهل عليهم أن يهتدوا باستعدادهم الفكرى إلى أن يعرفوا أن لهذا الكون خالقا سبحانه له مافى السموات ومافى الأرض فيساعدهم هذا على الاطمئنان والاستقرار ، والاتزان والعقل ، والكياسة والحكمة ، والسلوك السوى ، الذى يجعل منهم أمثلة طيبة لهذا المخلوق الذى اصطفاه ربه لعمارة البسيطة ، والسيادة عليها، وسخر له مافيها من حيوان وجماد ، وأشجار ونبات ، وجبال وأنهار .. وقد كان تفكيره فى الدين الذى يجعل له طريقا إليه ، وسبيلا إلى معرفته ليخصه بالطاعة ، ويفرده بالعبادة ، فلا يتحول عنه، أو يتطلع اسواه ، من أقدس أعماله التى يتقرب بها إليه ، ولما كان هذا النزوع من الأمور الفطرية التى جبلت عليها البشرية منذ تفتحت عينها على هذا الوجود ، وهى تخطىء القصد ، أو تضل الطريق، لأنها لاتجد معالم تستعين بها، وحينئذ تتخبط كالعشواء ، كان فى هذه السطور التى نملأ بها هذا الكتاب الصغير نمط من الرأى والمنطق يصلح — على الأقل — لأن يكون مشاعل أمام أولئك الذين يريدون أن يصلوا من وراء البحث الجاد عن المعبود الذى يجدر منهم بتلك العناية من التفكير ، ليكون لهم ملاذاً عند الضيق ، ورجاء عند اليأس ، ومفزعا عند الخوف، وإذا كنت

فى أسلوبى البيـانى توخيت السهولة ، والانسياق وراء الطبع ، وتجنبت قدر المستطاع العصبية لرأى خاص فإنما هو ايـكون ذلك مشجعا للقارىء أن يكون حرا فى خضوعه للمنطق ، والتزامه به ، وميله اليه ، وهـكذا كان القرآن الـكريم أمام هذه القضية الشائكة إذ يقول « وما جعل عليـكم فى الدين من حرج » والله وحده الهادى إلى أقوم السبل ، وهو نعم المولى ، ونعم النصير ؟

د . ابراهيم على أبو الخشب

النزوع إلى المعرفة

كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كثير من الأوقات يسألونه أسئلة يبدو منها الغرابة أو تجاوزها لحدود اللياقة والذوق ، وكانوا لا يتحرجون منها ، ولا يبالون أن يوجهوها إليه بصرف النظر عن أن يكون الجواب عليها سارا لهم أو غير سار ، وكأنما كانوا يعتقدون أن مهمته معهم كمعلم أو أستاذ أو مرب كانت تقتضيهم أن يسألوا أو تقتضيه أن يجيب ، ولم يكن ذلك شاقا عليه ، أو مكدرا له ، أو مثيرا لنزعة الغضب فى نفسه ، لأنه كان يعلم علم اليقين أن لذعة الحيرة والتردد ، والشك والجهل ، وعدم المعرفة للأشياء ، والوقوف على حقيقتها ، وإدراك أسبابها ، وارتباط بعضها ببعض ، مما لا تقبله النفس ، ولا يطمئن إليه القلب ، أو يستريح له الخاطر ، لذلك فإنه لم يكن ليتغاضى عن إضاءة المشاعل ، وإشاعة النور ، لأولئك الذين تشتبه عليهم المعالم ، أو تخفى أمامهم الأمارات ، أو تغيب عنهم الأدلة ، وربما عاتبه الله سبحانه وتعالى ،

إذا بدر منه شيء يدل على ذلك ، ولو كان من قبيل الاجتهاد فى الرأى، كما حصل منه مع ابن أم مكتوم ذلك الذى نزلت فيه السورة « عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى » فإنه تغاضى عن استقباله ، وتباطأ عن المسارعة إليه ، وقد جاء إليه جماعة من الكفار يغرونه بالإيمان به، والدخول فى دينه ، والانضواء تحت رايته ، إذا كان على استعداد لأن يطرد من مجلسه الفقراء والسوقة من الناس ، وكانوا يكورون هذه المحاولة على أمل أن يتحقق لهم ذلك إلا أن الود كان يجابههم بما يخزيهم ، فتارة يقول له جل وعلا « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شيء ومامن حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » وأخرى يقول « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » . وكان جبريل عليه السلام يجيء إليه على شكل أعرابى جاف ليسأله فى غلظة وخشونة ، وكان من الصحابة من يستأذنه صلى الله عليه وسلم أن يفتك بهذا الجلف الذى يتجاوز أدب النبوة مع سيد الخلق إلا أنه كان يردهم

ويعنفهم حتى إذا ما انجلى الموقف قال لهم هذا هو أخى جبريل قد جاء ليعلمكم كيف تسألون لتزيلوا عن أنفسكم ظلمة الجهل.. وكان فى هذه الأسئلة التى يوجهها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ أمثال قول حذيفة بن اليمان «أو يأتى الشر بالخير يارسول الله» ويقول له نعم . . وكان حذيفة هذا يقول كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه .. وهكذا كان للشر مجال فى السؤال وطلب العلم بالأشياء . .

ولعل فى ذلك برهاناً لا يحتمل الشك على أن النزوع إلى المعرفة ، والتطلع إلى الأسباب ، أو الربط بين العلة والمعلول ، من الأمور الجبلية عند الناس جميعا لا فرق بين إنسان وآخر ، وقد يصحبها المسارعة وعدم الأناة أو التؤدة ، ويبدو ذلك فيما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن جبريل وهو يلقنه ما يوحى به إليه لم يظل على إصغائه إليه حتى ينتهى وإنما كان يتابعه كلمة كلمة حرصا على الأخذ، وشوقا إلى المتابعة ، وخوفا من أن يند عنه حرف ، وهنالك نزل عليه « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » وكذلك كانت قصة موسى مع الخضر عليهما السلام « قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ،

قال إنك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ، قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ، قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا » إلا أن موسى مع تلك التحذيرات لم يلتزم بالشرط الذى اشترطه عليه الخضر « فلا تسألنى حتى أحدث اك منه ذكرا » مع إلزام موسى لنفسه من قبل « ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى اك أمرا » لكن تلك الغريزة التى يسمونها « حب الاستطلاع » كان سلطانها قويا جعل موسى لم يلتزم بميثاق، أو يرتبط بعهد ، وذلك حين غلبت عليه شهوة السؤال ، وطغى عليه سلطان الوقوف على الحقيقة ، مع تأكيد الالتزام أكثر من مرة واحدة « لا تؤاخذنى بما نسيت » «إن سألتك عن شىء بعدها فلاتصاحبنى» وكأنما ذلك كله لم يكن.. وهكذا كانت سيطرة النزوع إلى المعرفة ، والبحث عن الأشياء ، والرغبة الملحة فى إزالة الحدود والسدود ، حتى استبيح انفسها أن تخيس بالعهد ، أو تخلف الوعد ، أو تنحرف عن الجادة باسم ما كان يجرى على الألسنة بعنوان « حرية الرأى» لأنها جانب من جوانب الجدل فى الأشياء ، والاختلاف فى وجهة النظر ، وهما من لوازم السؤال عن الماهية ، وطلب الحقيقة ، ولا يشك عاقل فى أن حرية

الرأى كحرية النفس، غاية عظمى يعمل الإنسان لها ، ويسعى إليها ، ويجاهد من أجلها ، وربما كانت عبودية الأجسام على خطرها،وعظم شأنها ، وإن كانت سجنا مرذولا ، وحدا من النشاط أو الحركة ممقوتا ، ليست شيئا مذكورا إلى جانب عبودية الرأى ، والحظر عليه ، وإقامة الأسلاك الشائكة من حواه ، ولهذا نرى الرجل ذا الهمة الأبية ، والنفس الكبيرة ، والطموح البعيد ، والإيمان القوى، يرضى أن يطوح به فى السجن ، أو أن يزج به فى داخل الكهوف والمغارات ، أو فى الأدغال مع الوحوش والهوام ، ثم لايقبل أن يحال بينه وبين الرأى الصريح ، والمنزع الصحيح ، والعقيدة التى يذعن لها قلبه، ويطمئن بها وجدانه ، ولو أكره على خلاف هواجس نفسه ، وهواتف حسه ، لم يسعه إلا أن يدعو بدعوة يوسف عليه السلام « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » ولا يكون الحجر على الآراء، والحيلولة دون الأفكار، ومحاربة العقول، وإطفاء مصابيح النظر الصحيح ، إلا فى طفولة الأمم ، وتخبطها فى دياجير الجهالة ، وحينئذ لا يكون نهوض ولا تقدم ، ولا رقى وعمران ، وإنما يكون الفناء أو التدمير ، والرجوع إلى الوراء دائما أبدا ، ولذا رأينا الإسلام يتغنى بهذا الانطلاق الذى يحمل العقل على أن يتمرد

على الأغلال والقيود ، وينعى على من يهمل النظر، ويعطل الفكر ، ويجمد الحواس ، ولا يستفيد من تلك المواهب التى خلقها الله له ، ويرى فيمن يعيشون على هذا الأسلوب ، أنهم كالأنعام بل هم أضل، ولم تقم دعوته على العنف ، أو تستخدم القوة ، أو تحتمى بالسيف ، وإنما تركت للناس الاختيار والتروى والترجيح والنظر ، والتأمل والتفكير ، ليكون الإيمان بعد ذلك إذعانا بمعنى الكلمة ، لا لجاجة فيه ولا شك ، ولا اضطراب ولا تردد ، من أجل ذلك كله لا يذكر الحكم إلا مقترنا بعلته ، ولا القضية إلا مصحوبة بالدليل الذى يؤيدها، وكأنما كانت هذه الحرية عنده قضية لا يسلم بها على طول الخط ، وإنما هى مقبولة فى حدود عدم الإضرار بالغير أو الاعتداء عليه ..

وإذا كان من أدب القرآن الكريم — فيما يعلم به هذه الأمة — أنه إذا اشتبهت عليهم الأمور أن يسترشدوا بأهل العلم والمعرفة ، والحصافة والعقل ، ليفتحوا عيونهم على النور ، وأفئدتهم على الحق ، وقلوبهم على الصواب ، فإن أدب الأغرار من أهل هذا الجيل هو قول عمر بن أبى ربيعة « إنما العاجز من لا يستبد » وقد

ظلت هذه البشريه فترة طويلة من الزمن لا يعنيها من هذا التفكير الذى يسيطر عليها فيه الاستبداد أو عدم الاستبداد ، أنها تنشد الدين الذى يصحح السلوك مع الله أو مع الناس إلا فى الأوقات التى ترى نفسها مضطرة إلى ذالك اضطرارا .. وقصة فرعون موسى فى تمرده وطيشه ، وغفلته وطغيانه ، صورة مكررة لأبناء آدم وبنات حواء « حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل » وكأنما سيطرة المادة على الأهواء ، وازدهار الحضارة فى العالم، جعل حديث الدين ، أو التفكير فى خالق السموات والأرض من المسائل التى لاتشغل البال ، ولا تثير الانتباه ، ولا تأخذ من التفكير قليلا ولا كثيرا ، وإنما الذى يعنى هذه البشرية أن تعيش لليوم لا للغد، وللجسد لا للروح ،ولشهوة البطن لا أكثر ولا أقل، لكن على مبدأ أن يأتى الشر بالخير ، رأينا الحروب الأخيرة التى طحنت الأمم والشعوب ، وأتت على الأخضر واليابس، ترغم كثيرا من المفكرين بحجة العلاج لهذا الدمار الذى أصاب هذه البشرية ، وأشاع فيها الأمراض والتخلف ، أن تفكر فى العودة إلى الأديان ، وهنالك برزت معسكرات الرأسماليـــة والاشتراكية والشيوعية والوجودية وغير ذلك وذالك مما يصدق فيها الآية القرآنية «ولو كان

من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » وهو على كل حال إن دلنا على شيء فإنما يدلنا على أن الإنسانية مهما تخبطت فى السير ، وانحدرت فى الباطل، وانغمست فى الشر، وأخذ منها الطيش مأخذه ، تبحث لا محالة عن المنقذ الذى يأخذ بيدها عند الشدائد ، ويطب لها عند الأوجاع ، وكون هذا المنقذ دينا أو خلقا أو سلوكا أو دستورا ونظاما شيء لا يهمها أن تضع له الاسم الذى تعرفه به ، والبدائية التى عاش فيها الإنسان الأول لم تخل من هذا على اختلاف النظر والاعتبار ، فقد كان مدفوعا بحكم الفطرة إلى تفكير يشبه هذا الذى نتحدث عنه ، غير أن الأسلوب أو الطريقة التى صاحبت ذلك أو عالجته هى التى كانت تختلف كل الاختلاف لأن هذه البدائية ليست خاصة بالأدغال أو الأحراش ، ولا بالكهوف أو الجبال ، ولا بالجهات النائية عن العمران أو القريبة منه ، والتاريخ وهو يحدثنا عن هذه الأطوار وتلك الأزمنة يحدثنا أحاديث تشبه الخرافة أو الأساطير ، لا نكاد نصدقها ، ولا نعتقد أنها حصلت ، لكننا مع هذا كله لا نشك فى أن الإنسانية كانت منذ الأزل تمتاز عن الحيوانات العجماء التى لا يعنيها شيء وراء امتلاء البطن ، واستقبال الشمس أو استدبارها ، والبحث عن المأوى الذى تتقى به

إلى حد ما برودة الشتاء ، ولفح الصيف ، والرسل الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى كانت مشكلة المشاكل أمامهم هى تلك العقائد التى رسخت فى أذهان الناس ، وآمنوا بها ،أو عكفوا عليها،حتى صارت عندهم أشبه بالغرائز الثابتة التى لا يمكن أن يفارقوها أو يتخلوا عنها ، وعلماء المنطق وهم يميزون الإنسان عن غيره من الحيوانات الأخرى — مع الاشتراك فى الحيوانيــة — فيقولون إنه ناطق لا يقصدون من هذا النطق تلك المقاطع الصوتية التى تنتهى بنهاية التلفظ بها — كما يقول النحويون — وإنما يقصدون بهذا النطق التفكير الذى هو السمة المميزة ، ومن ذلك التفكير وصل بنو آدم إلى أن هذا الكون لا يمكن أن يكون تدبيره وخلقه وحياته وموته خبط عشواء أو بمحض المصادفة وإنما له حكمة ترعاه ، وعناية تسوسه ، وكياسة تصرفه ، وناموس يحفظ توازنه ، وقوة خفية تتحكم فيه ، هى التى مات فى سبيلها الفلاسفة والحكماء . .

الدين

كلمة الدين فى أصل مدلولها تفيد معنى الخضوع والانقياد والطاعة والتسليم ، وعلى هذا فإنهم يقولون دان له القوم بمعنى أسلموا قيادهم له إسلام طاعة وانقياد من غير أن تكون لهم إرادة معارضة ، أو رأى مخالف ، أو هوى متناقض ، أو تمرد على طاعته ، أو خروج على أوامره ، ودان أهل الحى لفلان إذا استجابوا لدعوته ، وصاروا أشبه بظله الذى يتبعه ، لا يخالفون له اتجاها ، ولا يخيبون ظنه فيهم بحال من الأحوال ، وكأنما هو فى نظرهم المثل الأعلى للقائد أو الرائد [1] ، وتطلق الكلمة — كذلك — على الجزاء على الأعمال يوم القيامة ، ومن هنا كان التعبير القرآنى فى سورة الفاتحة « مالك يوم الدين » أى الجزاء على الأعمال — إن خيراً فخير وإن شراً فشر — « يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من

---

(١) أصل الرائد الرجل الذى كانوا يبعثون به ليبحث عن الكلا والعشب ليرعوا فيه الإبل والغنم ومن ذلك قول النبى ص « إن الرائد لايكذب أهله » .

سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » على أن المعنيين — الخضوع والجزاء — يتداخلان أو يتلازمان أو يكمل أحدهما الآخر ، لأن الذى يلقى من الله عز وجل جزاءه يوم القيامة خاضع له تمام الخضوع — راغباً أو راهباً — لأن هذا المصير الذى انتهى إليه لم يكن من صنع نفسه ، ولا بإرادته واختياره ، و نما هو مصير مقضى عليه به ، كان من الحتم أن يصير إليه .. والمراحل التى اجتازها ، والمسافات التى قطعها وتخطاها ، أو الأطوار التى مر بها ، منذ أن كان خاطراً فى فؤاد أمه ، وفكر أبيه — أو نفسيهما معا — إلى أن كان ماء وعلقة ومضغة مخلقة وغير مخلقة وطفلا وشابا ورجلا وكهلا وهكذا إلى يوم النشور والحشر وتقرير المصير إلى الجنة أو النار ، تنفيذ لخطة رسمتها الإرادة العليا والقضاء النافذ ، لم يكن لأحد تصرف فيه ولا اختيار « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . . » وما من فصيلة من فصائل الحيوانات أو الطيور ، أو نوع من الأسماك فى المحيطات أو البحار إلا كان فى فطرتها التى خلقت بها ، أو جبلتها[1] التى طبعت عليها ، هذا الانقياد إلى من تطمئن إلى أنه يفضلها فى معنى ، أو يزيد عليها شيئا ، أو يمتاز عنها بما يمكن أن يوفره لها من الخير ،

---

(١) الفطرة والجبلة بمعنى واحد ، وهى الحالة التى ولد عليها الإنسان .

أو يذوده عنها من الخطر ، أو يدفعه عنها من الأذى ، ويبدو ذلك في التبعية العمياء[1] له،والتفافها الواضح حوله ، وتعلقها الأكيد به ، وربما كان هذا الفرد الذى كان له هذا التميز على سائر الأفراد هو كل شيء فى حياتها،ودفع الشر عنها،أو جلب الخير لها،وفى يعسوب النحل شاهد صدق على ذلك كله ، إذ تنقاد له ، وتلتف حوله ، وتعتمد عليه ، ويكون وجودها رهناً ببقائه على هذا الوضع منها ، فإن نزلت به جائحة[2]، أو وقع عليه عدوان كانت هى بعده خبراً من الأخبار .. والبشرية على تطاول تاريخها ، واختلاف مراحل حياتها ، من الأحراش والأدغال ، والخيام والمنازل ، والقرى والمدن والأكواخ والقصور ، كانت تشعر بتلك التبعية الروحية التى تخفى عنها ، وإن كانت تعيش فى أوهامها المظنونة ، وخيالها الواسع ، وشعورها الجياش ، وعقلها الباطن ، ووعيها المكبوت ، وأحلامها التى تملأ رؤوسها ، وقد انقادت لرئيس القبيلة ، ونزلت على إرادته واستجابت له بادىء ذى بدء ، إشباعاً لهذا النزوع ، وتحقيقاً لهذا المعنى ، ومع مرور الزمن ، وتهذيب هذه الفكرة نوعا ما ، بحثت

---

(١) التبعية العمياء التى لا جدل فيها ولا مناقشة ومن ذلك الحب الأعمى

(٢) مصيبة .

عن صورة يتمثل فيها ذلك الانقياد ، وتلك الطاعة ، مما يكون له أثر فى الكون والطبيعة ، كالهواء أو الما. أو الكواكب أو الرياح أو الجبال أو الشمس والقمر وهكذا ، ثم أخذت بعد ذلك كله ترمز لها برموز تنبىء عنها ، أو صور تدل عليها ، تعبدها وتطوف حولها ، أو تجعلها همزة الوصل إلى هـــــذا الذى تعبده وتطوف حوله ، وربما قالوا ـ حينئذ ـ [مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى] وإن كانت عبادة الأصنام أو الأوثان أو الرياح أو ما شاكل ذلك لاتحدها أمثلة ولاصور ـ كما يقول كتاب الأصنام ـ وقد رووا أن الصنمين (إساف ونائلة) يرمزان إلى رجل وامرأة فسقا فى الحرم فمسخهما الله إلى حجرين على صورتهما ، وعلقهما الناس بالكعبة ، ليصبوا عليهما اللعنة ، وينظروا إليهما بعين الازدراء ، أو يأخذوا منهما عظة واعتبارا ، إلا أنه مع تطاول الزمن وتناسى الناس لهذه الحادثة ، تحول البصق عليهما ، واللعنة لهما ، والزراية بهما ، إلى قداسة وعبادة ، وحفاوة وإجلال ..

وفى قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر[1] التى سجلها

---

(١) والده أو عمه خلاف فى ذلك .

القرآن الكريم ـ وكان أبوه هذا يحترف صنع التماثيل ويعبدها ، ويبيعها لمن يعبدها من قومه ـ (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، ياأبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، ياأبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ، قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا[1] ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) دلالة واضحة على مدى تعلق البشرية وارتباطها بتلك الصور والتماثيل التى كانوا يصنعونها بأيديهم ، وأنهم كانوا يشبعون بها نزوعا[2] كان فى نفوسهم ، ورغبة حارة كانت تقلق بالهم ، تلك هى فكرة العبودية ، والارتباط بالقوة الخفية التى لا يرونها ، ولم يصل بهم الاعتقاد إلى حقيقة أمرها بعد ، ولم يكن القرآن ولا غيره من

(١) هونا مامن الزمن .
(٢) رغبة نفسية .

الكتب السماوية قد جاءت إليهم بقوله جل جلاله (ليس كمثله شىء) وكأنما كان إبراهيم عليه السلام — وهو أب الأنبياء — أستاذ الأساتذة فى هذا الأسلوب الجدلى البارع ، وقد كان له موقف آخر أراد به أن يعلن لقومه أن الخرافة التى تتمكن من العقول وتستولى على النفوس، لا يكون علاجها إلا بالتمرد عليها ، والتحطيم لمعالمها وآثارها ، حتى لا تعود الأوهام إلى الارتباط بها ، أو الحنين إليها ، والتقرب منها ، وذلك كله قد تمثل فى عدوانه عليها ،وتحطيم رؤوسها ، كما جاء هذا فى سورة الصافات(وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ، إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أئفكا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ، فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم ، فتولوا عنه مدبرين ، فراغ[1] إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ، مالكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضربا باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون[2] ، قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ، قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ، وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) وقد

---

(٢) راغ إلى كذا مال إليه سرا وذهب إليه دون ان يشعر به أحد

(٣) يسرعون .

ذكر هذا الموقف على صورة أخرى فى سورة الأنبياء (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن[1] وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذا[2] إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ،قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا[3] على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قال حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يانار كونى برداً وسلاما على

(١) أصل فطر الشىء معناه ابتداء خلقه .

(٢) جذاذ الشىء ماقطع منه .

(٣) أصل النكس والتنكيس جعل أعلى الشىء أسفله .

إبراهيم،وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) وهكذا كان الحوار الذى أجراه الله على لسانه صورة من المنطق فى أدق صوره ، وأوضح معانيه ، وأبسط أساليبه ، يحمل فى طياته اللباقة والكياسة والحكمة والعقل ، ومخاطبة الفطرة ، وملامسة شغاف القلب ، فى حين أنه لم يترك لخصومه منفذاً يخرجون منه ، ولا حجة يلزمونه بها، ولا دليلا يقيمونه عليه (فاسألوهم إن كانوا الخ) وكأنما كانوا فى غفلة عن ذلك كله ، ولم يدر بخلدهم من قبل أنها لا تنطق ولا تضر ولا تنفع ، فلما جابههم بهذه الحقيقة كان وقعها شديدا (قالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) وينتهز صلى الله عليه وسلم هذه الفرصة الى أبعد حدودها ، فيسجل عليهم هذا الاعتراف الذى صدر عنهم والذى يدل على أنهم كانوا على قدر كبير من الضلالة والجهل ، والغفلة والطيش ، والتخبط والحيرة ، لم تتكشف لهم الحقائق ، ولم يظهر لهم الصواب ، وكأنما كانوا يركبون رؤوسهم ، ويعيشون بعيداً عن العقل الهادى ، أو الفكر المرشد ، أو الرأى السديد (قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم (١) ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) لكنهم وقد خانهم الصواب ، وغاب

---

(١) أصل كلمة اف اسم فعل بمعنى اتوجع ويقصد به هنا الدعاء عليهم .

عنهم الحق ، التجأوا إلى أسلوب المجانين الذين يرمون بالطوب والحجارة ، والحق كل الحق أن يكون الميدان للمنطق ثم يتحول الى صراع جسدى، أو حرب دموية، أو انتقام لايدل إلا على الحقد الذى يلحق أحد الطرفين بسبب تلك الهزيمة المنكرة التى يجد نفسه متورطا فيها (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم) وهو - كما ترى - نصر شر من الهزيمة ذاتها ، لأنه عنوان على أن صاحبه تجرد من الإنسانية ، وتحول إلى شيء آخر تنكره الإنسانية وتأباه ، ولم يكن ابراهيم عليه السلام وحده هو الذى صارع قومه بالبرهان ، وحاجهم بالمنطق ، وجابههم بالدليل، أو سفه أحلامهم بالانحراف عن الجادة وعدولهم عن السنن السوى فيما يجب أن يكون دينا قيما ، أو عقيدة سليمة ، وهديا صحيحا ، يجعل قلوبهم ممتلئة بالإيمان الراسخ بتلك القوة الخفية التى تدبر أمور البشر ، وتصرف شئون الكون ، وتقضى على الناس بالخير أو الشر ، وإنما كانت هذه القصة المكرورة ، والحديث المعاد ، فى تاريخ الأنبياء والمرسلين « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا منهم أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وذلك إن دلنا على شيء

فإنما يدل على أن البحث عن الدين والنزوع إليه ، من الأمور التي كانت على مدى التاريخ تشغل بال[1] الإنسانية ، وتقض[2] مضاجع الناس ، وتأخذ من تفكير البشرية وصراعها العقلي الشيء الكثير بصرف النظر عن كون هذا التفكير ، أو ذلك الصراع ، كان صوابا أو خطأ ، وقد علمنا أنه كان في بعض الأحيان يلازمه المنطق ، ويصاحبه الصواب ، وأن العقل كان يحاول معه محاولة جادة أن يصيب كبد الحقيقة ، وقد كان في الجزيرة العربية من كان على شاكلة قس بن ساعدة الإيادي الذي كان يقول « إن في السماء لعبرا وفي الأرض لخبرا ، ليل داج[3] ، وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، ألا تدل على اللطيف الخبير »

وقد تعرض بعض المفكرين لتعريف الدين . فقال فريد وجدي « الدين شعور بالارتباط الطبيعي بين الإنسان وروح الكون ، ولا يستطيع أحد مهما بذل من الجهود أن يتخلص من هذا الشعور ، وإذا قلنا إن الإنسان لا يمكنه أن يعيش بلا دين لا نكون

---

(١) فكر

(٢) الغض المضجع تترب وخشن حتى صار غير ملائم للنوم والرحة .

(٣) مظلم .

مغالين ، بل نكون متماشين مع طبيعة الأشياء . . . وينقل الشيخ أمين الخولى عن الجرجانى قوله الدين وضع إلهى يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول . . وعن صاحب كتاب كشاف اصطلاحات الفنون أن الدين وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح . . وعن الراغب الأصفهانى الدين ما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله . . ويقول بعض الغربيين إنه ديوان الفضيلة . والطراز العالى للحياة . ويقول بعض المشتغلين بعلم النفس إن فكرة الدين نشأت فى أول أمرها عند الإنسان البدائى من الخوف من مظاهر الطبيعة كالرياح والأمطار والبراكين إذ اهتدى إلى أن يحتمى من مخاطرها بقوة خفية لا يعرف مصدرها على التحديد ، وكان أسلوب هذا الاحتماء — أو الالتجاء — غير محدد بكيفية بعينها ، ولا أسلوب بذاته ، كما أن هذه القوة لا يستطيع أحد ، أن يحددها أكثر من كونها معنى روحيا خفيا عن الإدراك تمتلىء به الخواطر .. وتتوهمه الأرواح ، وتزدحم به الأفكار ، وتعمر به الأفئدة ، ثم لم يكن لأحد من الناس أن يترسم أبعاده ، أو يخطط صورته ، أو يصف ملامحه ، ومن هنا كثرت النعوت له ، والحديث عنه ، والتصورات

المختلفة لذاته . فهو تارة جماد أو نبات ، ومادة أوروح ، وليل أو نهار ، وهكذا دواليك[1] .. وأغلب الظن أن كلمة إله أو خالق وموجد للأشياء ، أو مدبر لهذا الكون ، أو علة العلل — كما يقول الفلاسفة — لم توجد في لغة البشرية إلا فيما بعد حينما شبت الإنسانية عن الطوق إلى حد ما ، وحديث القرآن الكريم عن خالق كل شيء في زعم العرب هو رب العالمين من غير شك « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » إلا أن هذه الألوهية التي كانت تجري على ألسنتهم ، ويعترفون بها ، ويؤمنون إيمانا راسخا أنها وحدها صاحبة السلطان على هذا الملكوت ، كان فيها فوضى لا نهاية لها ، إذ كانت مرة رموزاً وإشارات ، ومرة كان لها أعوان وجنود « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ومرة ثالثة كان لها شركاء «وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم،وخرقوا[2] له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يشركون) وهؤلاء كانوا كثرة غير محدودة ، والرد القرآني القاطع لذلك كله (قل هو الله أحد ، الله

---

(١) تداولا أوحاله بعدها أخرى .

(٢) أختلقو زورا وبهتانا .

الصمد[1] ، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد) وقد اخترع المسلمون علما برأسه خاصا بالدفاع عن هذه القضية ، وتنزيه الله جل وعلا عن الشريك أو الصاحبة والولد . والقهر والغلبة . والعجز وعدم القدرة، ولما كان أهم ما فيه حديثه عن الوحدانية وتنزيهه عن شريك ينازعه ، سموه (علم التوحيد) ويقول هذا الكتاب السماوى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .. وعلى الرغم من أن القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة فيهما النصوص القاطعة الدالة على وجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته وانفراده بالملك والملكوت وسلطانه على هذا الوجود كله ، فإن لعلماء المسلمين قاعدة يلتزمون بها ، تلك هى أن الدليل العقلى مقدم على الدليل النقلى .. والنبى محمد صلى الله عليه وسلم ظل يدعو العرب ثلاثا وعشرين سنة كاملة — فى مكة والمدينة ـ كانت فى أول أمرها تنزيها لله جل جلاله عن كل نقص يتنافى مع الألوهية التى لا يكون لها إلا الكمال المطلق . والانفراد بالأمر والنهى . والحياة والموت ، والقضاء والقدر ، وأنه وحده

(1) الذى يصمد إليه فى الحاجات لايقيضها غيره هو .

الذى بيده ملكوت السموات والأرض (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة : إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) والإنسان إذا ما تيقن ذلك وآمن به . استراح قلبه ، وسكن جأشه ، واطمأن فؤاده ، وطابت نفسه ، وآمن إيمانا راسخا أنه قد آوى إلى ركن شديد ، وهنالك يعتز بربه ، ويزداد إذعانا له ، وثقة فيه ، واعتمادا عليه فلا يذل لغيره ، ولا يخضع لسواه ، ولا يطلب إلا منه ، ولا يكون الإنسان كل الإنسان إلا كذلك . ولا تجد أحدا تأنس به ، وتستريح إليه ، وتهش للقائه ، وتحب دائما أبداً أن تراه . كأنما تكمل به وجودك ، وتحقق به سعادتك ، ويرتاح له قلبك ، إلا وهو هذا الذى امتلأ يقينه بالله على هذا الوجه . وهو يعبده على هذا الاعتبار الذى يرى فيه وجوده ، وأن له كمال القدرة والإرادة . والخلق والتصرف ، والعلم والحكمة ، والرحمة والإحسان ، وأن له — كذلك — القهر والغلبة .... ومع كون نظرية الألوهية هذه من الوضوح والبداهة بهذه المثابة، أو ذلك القدر ، فان جماعات ممن طمس[1] الله

---

(١) غطى عليها فصرفها عن الحق ، وأصل الطمس الازالة .

على بصائرهم ، وأضل عقولهم ، وأظلم أفئدتهم ، وجعل على قلوبهم غشاوة ، ينكرون هذه الحقيقة ثم لا يكتفون من هذا الإنكار بالإنكار ، وإنما يريدون أن يحملوا الناس عليه ، زاعمين أن هذا الوجود حدث بطريق المصادفة المحضة ، أو الضرورة الطارئة ، والفرق بين هذين المعنيين أن المصادفة وجود لم يكن مقدوراً أو مظنونا ، وأن أصل هذه الكائنات خلية ما ، وبمرور الزمن أو مضى السنوات والأعوام صارت إلى هذه المخلوقات التى لاعداد لها مشكلة بتلك الأشكال المتنوعة من إنسان وحيوان وطيور وأشجار وأنهار وجبال وهكذا ، أما الضرورة فهى الحاجة التى لا بد منها للموجود الحى ، وذلك كطول عنق الزراقة الذى يساعدها على تناول غذائها من الأشجار العالية ، وزعانف السمكة التى تسهل عليها السبح فى الماء ، ولا يؤمن أولئك الذين يقولون هذا القول — بالضرورة أو المصادفة — بتلك القوه التى تدبر هذا النظام ، وتقدر الحياة أو الموت ، وتمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وهو منطق يشبه منطق الأطفال يتهاوى بعضه على بعضه ، وينكر أوله آخره ، ولا ينطلى على الصبيان والمجانين (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة

وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه أباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ، ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى[1] وإلى الله عاقبة الأمور، ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم ثم ننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وكأنما هذه الآيات من سورة لقمان تضربهم على أقفيتهم . وتواجههم بما يتساقط به لحم وجوهم . ويتخاذل له كبرياؤهم — إن كان هنالك — وبخاصة إذا لاحظنا أنهم لا يعتمدون على منطق ، ولا يستندون إلى دليل ، ولا يقف إلى جانبهم عقل ولا نقل والدعاوى هكذا تكون افتراء على الله وعلى الناس ، لا يتمسك بها إلا الحمق ، ولا يصدقها إلا أولئك الذين أصابهم الله بالاهتزاز العقلى ، أما الإنسان الذى كرمه وبه بالوعى الصحيح ، والإدراك السليم ، والحكمة والرشاد ، والنور والهداية ، وفتح عينيه على الضياء ، وقلبه على الحق ، يضع أمامه فى كل وقت قول الله فى محكم آياته (قل اللهم فاطر السموات والأرض أنت

---

(١) القوية المتينة .

تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) وأعتقد أن هذا الإنسان ليس هو الذى جاء بحكم المصادفة أو الضرورة ، ولكنه هو هذا الذى فضله ربه بالعقل ، وكرمه بالرأى ، وشرفه بالتكاليف ، وعلى الجملة فإن الأمر الذى لا شك فيه أن اشتغال الناس بالمعبود ، واهتمامهم بمدبر هذا الكون ، وبحثهم عن مانح السداد والرشاد ، والهداية والتوفيق ، أو صاحب الطول والحول ، الذى تتجه إليه النفوس بالرجاء والقلوب بالرغبة ،والأروح بالخشية من الأشياء الجبلية التى تنشأ معه منذ طفولته ، ثم تشب معه ، ويتحول تصورها أو أعتقادها بالشكل الذى تعطيه الثقافة والمعرفة فإن كثيراً من الثقافات — الآن — عند كثير من الأمم والشعوب ، وفى أرقى الجامعات تقوم على الشك والتردد ، والإلحاد والزندقة[1] ، ولا تقدم لأبنائها وذويها رصيداً من العقائد السليمة ، أو القضايا الصحيحة ، أو السلوك السوى ، وفى يقين هؤلاء جميعاً أن هذا النمط من الدراسة أو السلوك يربى فى الطالب أو المتعلم النزعة الاستقلالية التى تجعله لا يميل إلى أن يكون تابعاً لغيره ، أو متأثرا به ، أو مقلدا له ، على أن مسائل الدين أو الاعتقاد أو

---

(١) عدم الإيمان بالله .

(٢) نمط الشيء وطرزه ومقياسه .

الألوهية من المسائل التي لا تعنيهم في قليل ولا كثير لأنها تعالج صلة المرء بالله وهذه يحددها ضميره هو فإن شاء كان ربانيا وإن شاء كان شيطانا ، والبيئة أو المجتمع في كلتا الحالتين لا يعنيها من ذلك كله شيء وهو الخطأ الذي لا يقبله عاقل لأن التدين أو الاعتقاد سلوك إنساني يتأثر به المجتمع والجماعة أولا وقبل كل شيء .

ماهي أو هو

هذه القوة الخفية التي وجد الإنسان نفسه مسوقا إليها بالطاعة أو مدفوعا إليها بالإجلال والاحترام ، أو مشدوداً إليها بالتعظيم الذي يشبه القداسة[1] ، محاولا بما يتقـدم به إليها من القرابين والعبادة ، أن يستمد منها العون على الشدائد ، والاحتمال للمصاعب ، أو الأمن عند الخوف ، والفرج عند الضيق ، قد لا يخطر بذهن إنسان من الناس أن يخلع عليه عنواناً بعينه مثل الربوبية أو الألوهية ، وإن كان ذهنه وقلبه وفكره ويقينه مملوءاً بأنه معنى لا يتناهى ، ولا تحده أبعاد أو حـدود ، وزمان أو مكان ، وإليه ترجع أمور الخلق من الرزق والتدبير ، والحياة والموت ، والعطاء والمنع ، وجريان الأنهار ، ودوران الأفلاك ، وتعاقب الليل والنهار ، وماسوى ذلك مما يتصل بالقدرة الباهرة ، والإرادة الظاهرة ، والخلق المعجز ، والتدبير المحكم ، والقضاء المبرم[2] ، والصنع البديع

---

(١) القداسة والتقديس النزاهة والطهر .

(٢) النافذ الذى لااستئناف له ولارجوع فيه .

الذى تنادى به الآية الكريمة ، «هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه » وهى فى أول أمرها كانت نزعة فطرية ساذجة لا يخص بها أصحابها جماداً ولا حيوانا ، أو مظهراً من مظاهر الطبيعة كالبرق أو الرعد ، وإن كانت نفوسهم وأفكارهم لاتنفك عن ذلك كله ، تتخيله فى أكثر من شىء ، وتظنه موجوداً فى كل شىء ، والذى يعنيها أن تظل مرتبطة به على الدوام ، كما حدثوا عن ابن المقفع أنه لما أبدى رغبته فى الإسلام ذهبوا به إلى الخليفة لكى يعلن إسلامه بين يديه ـ وكان النهار موشكا حينئذ أن ينصرم ـ فقال الخليفة أجلوه إلى الغد حتى يحضره الوزراء والرؤساء والقواد ليشاركوا فى الاحتفال به ، فلما دخل الليل واجتمعوا معه على طعام العشاء أخذ يزمزم[1] على عادة المجوس ، فقيل له أتفعل فعل عباد النار وأنت على عزم أن تسلم . فقال خفت أن أبيت على غير دين ، ويظهر أن من الرواسب التى تركتها نزعة التدين بصرف النظر عن الدين الذى يعتقد فيه الإنسان ، ويرتبط به حنين المرء لأخيه ، وأنسه به ، وارتياحه إليه ، وطلبه له ، وتعاونه معه ، وغير ذلك وذلك من معانى الحدب والود ، والعطف والميل ، الذى يتطور إلى

---

(١) الزمزمة صوت خفى لا تبين فيه الكلمات .

صداقة حيناً ، وإلى حب حينا آخر ، وإلى نسب أو مصاهرة حينا ثالثا ، والذى يتدبر الآية الكريمة وهى تقول « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » يؤمن إيماناً لاشك فيه بمقدار فضل الله على الناس بوصل ماعساه أن يكون قد انقطع بينهم من وشائج بهذا الاتصال الموثق بعقد النكاح الذى جعل كل واحد من الطرفين ـ فى ذاته ـ زوجا وأصل الزوج من الأعداد هو الذى يكمله آخر ليجعل له نصفا صحيحا ، وشبه بذلك كل من الرجل والمرأة بعد أن يربط مابينهما هذا الرباط المقدس ـ بالإيجاب والقبول أو الوثيقة المكتوبة التى يشهد عليها اثنان ـ وكأنما يقول هذا لكل واحد من الطرفين أنت منذ هذه اللحظة قد صرت اثنين ـ أنت مضافاً إليك هى وأنت مضافاً إليك هو .. والإسلام وهو يوصى المسلم بأن تفنى ذاته فى أخيه المسلم فى مثل « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » أو قوله « وأن هذه أمتكم أمة واحدة » أو « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » أو قول علماء الفقه الإسلامى « مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الواحد » إنما يؤكد الفطرة التى فطر الله الناس عليها ... ولعلنا وقد استرسلنا هذا

الاسترسال نكون قد انتهينا إلى نتيجة لابد لنا أن نعترف بها من غير تردد وهى أن هذه النزعة قديمة قدم الإنسان نفسه ، وربما كان من الأدلة على أصالة هذا الرأى مايقال عن المعتزلة الذين كانوا يقولون إن أهل الفترة[1] ـ الذين لم يدركوا نبيا ينقل إليهم دعوة السماء ـ يحاسبهم الله على المعاصى والذنوب ، فلما احتج عليهم أهل السنة بأن ذلك مرتبط ببلوغ دعوة الرسول ، وأن الله سبحانه وتعالى يقول « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » كان ردهم عليهم بأن الرسول فى الآية هو العقل الذى هو مع الناس فى كل زمان ومكان يحاسب الله أصحابه به ، فإن غاب فلا حساب ولا مؤاخذة ، وكان المعتزلة أصحاب هذا الرأى لا يقولون بهذه الفلسفة إلا وهم ينظرون إلى هذه المسألة من زاوية أن النزوع إلى التدين ، أو البحث عن الدين من الأمور الفطرية التى لا تحتاج إلى من يعلمها ، أو يدعو إليها ، وينادى بها ، أو يحمل الناس عليها ، وتيارات الإلحاد ، وموجات الشك والزندقة ، عواصف طارئة لا تلبث أن تزول « فأما الزبد فيذهب جفاء[2] وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض »

---

(١) المسافة بين الرسول السابق واللاحق بحيث لم يدركوا الأول ولا الثانى

(٢) الجفاء مانفاه السيل والمراد به الباطل .

وكم رأينا من انحدارات أصابت العالم هنا وهنالك بعناوين مختلفة كالشيوعية والوجودية والأبيقورية وغيرها من المذاهب التي تدعو إلى التحلل من المبادىء والقيم والأخلاق التي يلتزم بها العقلاء ، ويسير على وفقها أولئك الذين ينشدون الفضيلة ، ويطلبون الخير ، ويحاولون الاستقامة على الجادة ، أو طلب الحق ، ومع ذلك ثاب إليهم الرشد ، وعادت إليهم صحوة الضمير ، وأخذوا يبحثون عن الدين الذي يضع في أيديهم المشاعل التي تضيء إليهم مواضع أقدامهم فلا يصيبهم غبار ، أو يتردون[1] في الحفرة ، وفي هذه الأيام برزت جماعات من الشباب والشيوخ في كثير من معاهد التعليم باسم الدعوة إلى الله ، أو باسم الوعي الديني الذي يصل الإنسان بربه ويجعله في كل ما يأتي به أو يتركه آخذاً بهدى الدين ، وتعاليم الشريعة ، إلا أن الذي يلفت النظر في هذه الكثرة الكثيرة أنها مدفوعة إلى ذلك بالحماسة لا أكثر ولا أقل ، وهذه الحماسة إن دلت على شيء فإنما تدل على الظمأ الذي يبلغ حد النهم[2] عند أولئك النفر الذين يتوقون إلى معرفة ما يمكن أن يكون ركيزة إلى

(١) تردى في الحفرة إذا سقط .
(٢) شدة الرغبة في الطعام والاشتياق إليه ومثله التوقان .

هذا التدين الذى يطلبونه ، أو الذى يريدون ألا تخلو منه نفوسهم التى فطرها الله على طلب الزاد النافع ، والبحث الجاد عن تلك المعرفة وأنا مع اعتقادى أن الشباب — فى مقتبل سنه — لا يحسن القيام بهذه المهمة لأنه لم يهيىء نفسه لها إلا بهذا الحماس وكفى ، فإنى مؤمن أن لديهم فراغاً اعتقادياً يبحثون له عن الزاد الذى يمكن أن يملأ جوانحهم ، ويضىء بصيرتهم ، وأخشى ما أخشاه أن يكون كحاطب الليل الذى يقولون عنه إنه يجمع الدق والجزل ، وهذا هو السر فى أن صفوفهم يندس فيها أناس لا يحسنون إلا الهدم ، ولا يميلون إلا للفوضى « ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب » .

وعلينا ألا نبسط أسارير نا لهؤلاء أو نفرح بهم بمقدار ما نتوجس منهم خيفة ، فإن دعوات الإصلاح يجب ألا يتصدى لها إلا أولئك الذين قوموا تفكيرهم بالعلم ، وعقولهم بالحكمة ، وبيانهم بالأدب ، وسلوكهم بالدين ، وأخلاقهم بالاستقامة ، وبلغوا من المعرفة حد الأستاذية ، فلم يترددوا فى حكم ، ولم يشكوا فى رأى ، ولم يتلجلجوا[1] فى فهم ، ولم ينبأ عنهم الصواب والحق ، ولا السداد

---

(١) التلجلج فى الكلام تردد فيه ، ومنه قولهم الحق أبلج والباطل لجلج .

والرشد ، والذين لا يزالون فى موحلة الطلب يشك الناس كل الشك فى كفايتهم للارشاد ، وجدارتهم للوعظ ، ومتانتهم فى التكوين ، لكنهم على كل حال عنوان على أن السفينة التى يركبونها فى حاجة إلى الربان[٢] ، وليس من الإنصاف أن يتركوا هكذا وسط المحيط المتلاطم الأمواج تقذفهم موجة ، وتعلوهم أخرى ، وربما تكون النتيجة المتوقعة بعد هذا كله أنهم لم يصلوا بعد إلى شاطىء الأمان ، وقد تأثر بهذه الحركة الفزاعة إلى السلوك السوى الجنس الآخر من الشباب، فأخذ البنات يطلن الثياب ، ويقللن من المساحيق ، ويضعن على رؤسهن الطرحةالبيضاء ، ثم بالغن كل المبالغة فغطين وجوههن ، وجعلن الغطاء على العيون، وما أدرى كيف يرين فى الطريق مواضع أقدامهن ، فلا يعثرن بحجر ، أو ينزلقن إلى هوة ، ومن أين جئن بذلك من الدين الإسلامى ، وأنا أعلم من الفقه أن الوجه لا يدخل فى عورة المرأة والقرآن الكريم يقول « ولا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل » وقد كان الغلو فى الدين فى كل وقت أضر على الأمم والشعوب من تركه ظهريا ، لا يأخذ به الناس ، ولا يلتزمون بمبادئه وقوانينه ، وآدابه وأخلاقه ،

---

(٢) ربان السفينة الذى يعرف على سيرها .

ولم يقوض بناء الدول أكثر من أن يتولى أمر الإصلاح فيها من ليس له كفاية ، ولا لديه من الدراية والعلم، والجدارة والاستحقاق، مايؤهله لذلك كله ، إلا أن هـذه الثورة النفسية التى تمتلىء بها جوانح هؤلاء جميعا ـ من الشبان والشابات ـ يجب أن تستغل الاستغلال الصالح ، فتقدم لهم دور العلم من المدارس والجامعات الزاد النافع الذى يشبع نهمهم إلى المعرفة ، ورغبتهم فى التدين ، خالية من التعقيد والخلافات والتعصب الأعمى، وإذا كانت عقائد المتدينين تحتوى على شىء من الالتواء والغموض وعدم الوضوح فلنتجنب ونحن نقدم إليهم هذا الزاد تلك المتاهات اللفظية أو المعنوية ، ولو عاد ذلك إلى أن نترك كلمة دين وتدين وعقيدة وشريعة ومذهب ونحلة إلى كلمة أدب وسلوك أو تهذيب ولياقة وماهو الأولى والأفضل والأحسن ، على أنه ضرورى للأفراد والجماعات التى تنشد السعادة والاطمئنان ، كالأمانة والصدق والوفاء بالعهد والمعونة والبر والخير والمعروف ، ليشعر كل إنسان بحقه وحريته وكرامته وماله وعرضه ونفسه ، وهكذا نزرع فى القلوب دائما أبداً فكرة أن المجتمع أسرة واحدة تربطها الحاجة إلى تبادل المنافع ، والتعاون على الرخاء والنماء والرفاهة والتقدم ، وحينئذ يدرك الناس معنى السعادة التى تغمرهم ،

أو الأمن والأمان الذى يحيط بهم .. على أن كلمة دين وتدين وعقيدة وشريعة وإله أو رب وخالق ورازق ومدبر لأمر هذا الكون وما شاكل ذلك من كلمات سيستجيب لها العقل ، ويذعن[1] لها الفكر ، ويستريح إليها الطبع ، ويمتلىء بها القلب بعد ذلك كله من غير تطاحن ولا مناقشة ، أو حمق وطيش ، ونزاع وخلاف ، مادامت الثقافة قد فتحت الآفاق ، والعلم قد أضاء الطريق ، والأخلاق قد ألفت بين الأفراد والجماعات ، والأدب قد صار قانونا عاما يحتكمون إليه ، وقديما تقررت هذه القاعدة فى القرآن الكريم إذ يقول « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ويقول المفسرون تعليقا على ذلك إن العلم ينفع ولو كان مما لا يتصل بالآخرة ، ولا يربط المخلوق بالخالق ، والآية تعلل ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وهم علماء اللاهوت — كما يسمون أنفسهم — وإن كان القرآن

(١) الاذعان الانقياد بالقلب

الـكريم لا يعترف بمثل ذلك الأسلوب فى العزوف[1] عن الدنيا ، والانقطاع عن الحياة ، وذلك حين يقول « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » على أن هؤلاء الذين جعلهم الله أقرب الناس مودة ورحمة للمسلمين بسبب ما كانوا يتجملون به من العلم الذى قرب المسافات ، وأزال الجفوة ، واستخدم المنطق ، ونحى الخصومة جانبا ، تبين ـ فيما بعد ـ أن هذه المعارف التى حصلوا عليها كانت سببا فى هداية الله لهم ، ووصولهم إلى تلك الخاتمة الموضيه المحمودة « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأثابهم[2] الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » . . وهذه الآيات فى سياقها القرآنى هذا تصلح لأن تكون منطلقا عظيما فى تربية الشعوب والأفراد ، والأمم والجماعات وهى تربية تقوم على أن العلم ينمى الملـكات ، ويهذب الشعور ، ويربى الذوق ويقوم المنطق ، ويحبب الناس فى الخير

---

(١) العزوف عن الشىء الزهد فيه ، والكراهية له .

(٢) جعل ثوابهم الذى يجزيهم به .

لينشدوه من مظانه ، ولو أن هذا المبدأ ساد ساحة الدرس ، وميادين المعرفة ، لما اختلفنا على الحق ، أو افترقنا على الباطل ، فمزيداً من العلم الذى يرفع غشاوة العيون ، وظلام النفوس ، وغبار التخلف ، وأقذار الحق[1] ،وأوساخ العصبية ،لتلتقى الأفئدة على محجة واحدة ، ومهيع صحيح ، وطريق لا عوج فيه ولا التواء « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » وفى اعتقادى أن العلم لا يضل معه الربان ، ولا ترتطم به السفينة ، ولا يجىء بالطوفان ، وإنما يكون نوراً وهداية على طول الخط ، أو نهاية المطاف على الأقل ، وما كان يوما خبطا وحيرة ،[2] ولا ضلالة وعمى ، أو صراعا وعصبية ، وتمسكا بالباطل أو انحيازاً إلى ما لا يصح أن يكون ، اللهم إلا حين تفسد الضمائر ، وتسود الفوضى ، وتتمكن الأوضاع المختلة ، وتختفى من بين الناس القيم والمعايير ، وهنالك يبحث العقلاء عن المشاعل والمصابيح ، فلا يجدون إلا أنها بقية مما ترك آل موسى وآل هرون ، ومن الخير كل الخير أن يظل فيما بيننا منطق الحق

---

(١) الأقذار الأوسام .

(٢) السير على غير هدى .

والصدق ، والصواب والرأى ، وحب الخير والبر قائما ، لأنه هو
منارة السفن فى هذا المحيط المتلاطم بالأمواج والأعاصير ، وعليه
وحده قامت عدالة الله فى السموات والأرض ، وبه كان نظامه فى
هذا الكون الذى يعج بالشرور والآثام ، وعلينا أن نتواصى به ،
وسوف لا يضيرنا بعده شىء يتهددنا ، ولا خطب يصيبنا ، أو عدو
يكيد لنا ، وهكذا سبحانه وتعالى مع عباده على مدى التاريخ
والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

موقف يعجبني

هذه المحاولة اللطيفة التي سجلها القرآن الكريم في سورة الأنعام عن ابراهيم عليه السلام وقد أراد أن يتخذ من أسلوب التتبع والاستقراء ، مادة البحث الدقيق ، شيئا فشيئا عن الإله الحق الذي انفرد بالخلق ، واستحق العبادة، وله وحده الإجلال والإعظام ، والخضوع والاستسلام، والتضرع والابتهال ، والسجود والطاعة ، والصلاة والصيام ، يلوذ به الخائف ، ويفر إليه الهارب ، ويفزع إليه الملهوف ، ويرجوه الآمل ، ويستعين به الضعيف ، ويجيب المضطر إذا دعاه ، وله القضاء والقدر ، والحياة والموت ، والغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والشقاوة والسعادة وقد تسلح لتلك المحاورة برصيد من اللباقة والحزم ، والرأي والفكر ، والحكمة والعقل ، لا نظير له في جدل الفلاسفة ، ومحاجة الحكماء ، ومناظرة كبار العلماء ، وهم ينشدون الحق ، ويطلبون الصواب ، ويفتشون عما يجب أن يكون، أو يكدون[1] أذهانهم وصولا إلى لباب

(١) الكد التعب وكان العربي يقول مالي والولد إن عاش كدني وإن مات هدني :

الأمور ، والإله الذى يعبده الناس ، ويخضعون له الخضوع المفروض ، ويقفون بين يديه فى ضراعة الذليل ، وانكسار المؤمن ، وخشوع العابد ، ولهفة المحتاج ، ورجاوة الآمل ، وهو الله سبحانه وتعالى الذى لا يرده جبار ، ولا يقهره مسلط ، ولا يتحكم فيه جبروت أحد من المتكبرين فى الأرض بغير الحق ، وهذه هى قوله جل جلاله « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقومى إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .. وإذا كانت العبادة لنفع يمنحه المعبود لعباده ، أو فضل قد خلقه فيها ، أو نعمة قد أسداها إليها ، فهذه أشياء لا ينكر عليها أحد ماتعطيه من خير ، وتقدمه من بر ، وتبذله من عطاء .. وإذا كانت العبادة — كذلك — لضخامة الأجسام ، وعظمة الهيولى ، وكبر الحجم ، وجمال الشكل ، فإن الأشياء التى جعلها إبراهيم عليه السلام قطب الرحى ، أو مدار حديثه مع قومه ، للبحث عن الإله ، تجمع إلى المنفعة المبذولة ، والعطاء

المتجدد، والفائدة المرجوة، والخير الكثير، ضخامة الأجسام، وحسن الشكل، وروعة الصورة، وجمال الطلعة، غير أن هنالك بعد ذلك من العوارض ما يجعل ربوبيتها مكذوبة، وألوهيتها باطلة، والاعتماد عليها سفه[1]، والتوجه إليها انحراف عن جادة الصواب، ومهيع الحق وسبيل الرشاد، ذلك أنها تغيب بعد الظهور، أو تنقص بعد الاكتمال، وتتحول إلى أحوال مختلفة، وصور متعددة، وهذه أمارة الزوال، وعنوان الحدوث، ودليل الفناء والانتهاء والألوهية تقتضي البقاء الأبدي الأزلي «وهو القاهر فوق عباده وهو اللطيف الخبير» وقد كان بمثابة المفاجأة لهم حين اطمأنوا إلى أنه ينزل إلى ميدانهم، ويجلس على مائدتهم، ويبادلهم الرأي والفكر، والنظر والتأمل، بقلب مفتوح، وبحث خاضع للفطرة إلى أبعد حدودها، أن يتخلى عن الساحة هذا التخلي، ويعلن إليهم الانفصال إلى هذا المدى. «وحاجة قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون».

(١) السفه سوء التصرف وطيش العقل

وهى ثقة لا حد لها امتلأت بها نفس ابراهيم عليه السلام لا لأنه على يقين من أن الحق فى جانبه وكفى ، ولكن لأنه — كذلك — كان ملتزما بهذا الأسلوب الذى لا يثير الحفيظة ، أو يهيج الحمق ، أو يطيش الصواب ، أو يبعث على السخط والغضب ، وهى طريقة من يبغى الحق ، وينشد الصواب ، ويطلب الإنصاف ، فإن كانوا معه على محجة واحدة ، فهم وإياه فى ذلك كله سواء ، ومن الضرورى أن يشاركوه فى النتيجة التى انتهى إليها المطاف ، وأسفر عنها البحث ، ولذلك كان من الحذق[1] والحكمة ، والرشد والسداد ، والعقل والحزم أن يقول « فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » وأن يتولى بعد ذلك كله الجواب عن هذا الاستفهام بنفسه « الذين آمنوا ولم يلبسوا[2] إيمانهم بظلم » إشارة إلى أن هذا هو الجواب الذى تحتمه الضرورة ، ويقضى به منطق الواقع .. ولو أن الذين يبحثون عن الدين ، أو يختلفون فى نزعة التدين ، التزموا هذا الأسلوب الذى حاج به إبراهيم قومه لما اتسعت مسافة الخلف ، ولا اختلفت وجهة النظر ، ولا

(١) حذق الشىء — من باب ضرب — إذا مهر فيه ، وحذاق وتحذاق إذا ادعى أكثر مما يحذق .
(٢) يخلطوا كأنما يجعلونه لباسا .

ميدان الجدل ، ولا تباعدت القلوب هذا التباعد ، والذى ينشد الحق ، أو يرجو الصواب ، لا تغلب عليه نزوة ، ولا تتحكم فيه شهوة ، ولا يغلى بركانه بحجة واهية ، ولا إنصاف يلتزم به خصمه .. ولم يغنم العرب من علوم اليونان أحسن من هذا العلم الذى يسمونه المنطق ، وقد عرفوا منه أن المقدمات المسلمة تنتهى إلى نتيجة حتمية لا ينكرها إلا مكابر أو جاحد ، فماذا على البشرية إذا كانت تلتزم به ، وتخضع له، وتنزل على إرادته، وذلك من غير شك عنوان الإنصاف الذى هو أبرز الظواهر الإنسانية التى يتميز بها العالم عن الجاهل ، والمجنون عن العاقل ، ولا أدرى ماهو الباعث لأهل العلم على الخصوص الذين يجادلون بالباطل ، ويكابرون فى الحق ، ويخالفون فى البديهيات التى لا يختلف فيها اثنان ، ولا ينتطح فيها عنزان ، أن تتسع بينهم المسافة هكذا .. وأكبر الظن أن المنطق وحده لا يفرض على الناس أن يتلاقوا عند نقطة واحدة مادامت القلوب قد أفسدتها اعتبارات أخرى من البيئة أو الوراثة ، أو عملت فيها أحداث من شأنها أن تكسوها بغلاف خارجى ، والصدأ إذا علا وجه الحديد أذهب عنه البريق واللمعان ، وجعل الناس تشك فى معدنه ، لكننى مع هذا أعود إلى

طلب المزيد من العلم ، والكثير من المعرفة ، والغزير[1] من التأمل والمديد من الثقافات ، لأن ذلك كله لابد أن يشفى من الجهل والحمق، والعصبية والطيش ، ولا يهدى إلى الصواب مثل الريث[2] المشوب بالتفكير والتروى ، والمقارنة والترجيح ، والموازنة بين الأشياء ، وتغليب جانب الخير على جانب الشر ، مع التجرد من الأغراض والأهواء .. ولا يشك عاقل بعض الشك فى أن الذين يعلمون يرجى لهم — أو منهم — أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويصلوا لامحالة إلى شاطىء الأمان ، وعلى الذين يخافون على الشباب من الفراغ الدينى — كما يقولون — أن يدركوا أن نزعة التدين لا تفارقهم ولا تتخلى عنهم ، وإنما تلاحقهم ملاحقة الظل ، وتلازمهم ملازمة الروح ، وأن العلم هو الذى يكسب الحصانة والمناعة ، ولم يكن صديقا منافقاً ، وسيصل بنا إن شاء الله طال المدى أو قصر ، لأنه مصباح[3] ديوجين « ويومئذ يفرح المؤمنين بنصر الله ينصر من يشاء » .

---

(١) الغزارة الكثرة .
(٢) الهوادة والتأنى وعدم التسرع
(٣) كان يضىء مصباحه بالنهار بحثا عن الحق .

الحاجة إلى الدين

لعلنا من السياق الذى مر بنا لا نشك قليلا ولا كثيراً فى أن ارتباط الإنسان بالدين نهم روحى يحمله على أن يركز مشاعره وإحساساته، وهواجسه وتفكيره، ورغبته وتطلعه، ونهاية مطافه، إلى جهة ما ينتهى أمله إليها، وعبادته لها، كأنما يعيش فى ضميرها، يستعين بها، ويعتمد عليها، ويعتز بها، ويفاخر بأنها محط رجائه وأمله، وابتهاله وتضرعه، لأنها — فيما يعتقد — ترد عنه الأذى والضرر، والشرور والأمراض، وعوادى الأيام، وجوائح[1] الزمن وحوداث الدهر، ونكبات الليالى، وهو إذ يبحث عن هذه القوة الخفية هذا البحث يرى أن حاجته إليها لا تقل عن حاجته إلى الطعام الذى يمسك صلبه، والماء الذى يروى ظمأه، وكأنما هى هذا العالم الذى تعيش فيه مشاعره وأحلامه، وتخيلاته وأوهامه، يدرك عندها ما يدركه الشعراء من

---

(١) المصائب

اللذة فى هذا الأفق الواسع الذى تطير أوهامهم إليه ، وترفرف أجنحتهم فوقه ، أو مايدرك الفلاسفة من لذة المعرفة التى ينشدونها ، والحكمة التى يصيبونها ، وهى سعادة — كما نرى — أهم فى نظره من السعادة المادية ، والسبب فى ذلك أن السعادة المادية عرضة للانتقال والزوال ، لذلك لا يستقبلها المرء بالبهجة والغبطة لاعتقاده أنها مودعة لا تلبث أن ترحل ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هذه اللذة مهما كان شمولها وعمومها ، وغزارتها أو كثرتها ، محدودة معدودة ، لكن اللذة الروحية يحيا بها صاحبها هنالك عند سدرة المنتهى ، فى ذلك الأفق العلوى ، والدنيا الواسعة ، والعالم الفسيح ، لأن ساحتها فضاء لا يتناهى ، وملك لا حدود له ، وميدان أكثر من عرض السموات والأرض ، لذلك يحلق فيها عصفور الروض الذى ينتقل من دوح إلى دوح[1] ، ومن فنن إلى فنن ، وله بعد ذلك كله زهوره ورياحينه ، وعطره ووروده ، ومياهه وأشجاره ، وجمال أغصانه ، واهتزاز عيدانه ، لا يطارده إنسان ، ولا يزعجه حيوان ، وحاجة البشر إلى هذه الحياة الروحية لا تقل عن حاجته إلى القانون الذى

---

(١) الشجر العظيم الذى تلتف أغصانه .

يضرب على أيدى العابثين بالنظام ، المتطاولين على الأمن المتمردين على الفضيلة ، الذين يعكرون صفو الإنسانية ، ويقيمون فى طريقها الأشواك والعراقيل ، لتكون حياتها دائما أبداً هموما وأحزانا ، وشرورا وآثاما وهذا القانون الذى يقف المتطاولين ، ويرد الظالمين ، ويصد العابثين ، لابد منه لحفظ التوازن ، يحتاج من الناس إلى مقاومة شاقة ، ومغالبة صعبة ، وعناء دائم ، لأنه انتصار على الباطل ، وقضاء على الشهوة ، وهزيمة للنزوع ، وطرد للوساوس ، وحرب للشر ، وانحياز إلى جانب الحق ، وهى معاناة قاسية لا يجد الإنسان معها مفرا عن الهرب من هذا العالم المادى الحقير ، وحينئذ يطلب ذلك العالم الروحى — الذى نشير إليه — ليجد فيه المتعة واللذة ، والرضا والارتياح ، والأحلام التى تحمله على جناحيها إلى جنة عرضها السموات والأرض . . ولو أن الناس التزموا حدودهم فلم يتطاول قوى على ضعيف ، أو يظلم أخ أخاه ، ثم لجأوا جميعا إلى تلك الساحة العظمى ساحة الدين الذي يكبح الجماح ، ويقلم الأظافر ، ويهذب الطباع ، ويعود على الفضيلة ، ويحبب فى الإيثار ، ويرغب فى المعروف ، ويوفر للانسان كرامته ، لاستراح القاضى — كما يقولون — وكانت

---

(١) الظلام .

هذه الأرض التى نعيش عليها جنة تجرى من تحتها الأنهار ، ولكن هذا الأسلوب من البغى والعدوان ، والشره والطمع والتسلط وحب الذات ، هو الذى يجعلهم فى حاجة إلى ما يردع طيشهم ، ويرد حمقهم، ويكبح ما يكون منهم من سفه ، وما كان هؤلاء الذين يحملون لهم المشاعل من الرؤساء أو النقباء الذين يباشرون هذه المهمة بالانتخاب أو غيره لكنهم لم يتجردوا من الغرض ، ولم يترفعوا عن الشهوة ، أو يتنزهوا عن الجنف[1] ، أو يسلموا من الخطأ ، فأرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ، كيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وقد أيدهم بالمعجزات التى هى منزلة منزلة قوله صدق عبدى فى كل ما يبلغه عنى ، ومع هذا البرهان الذى كانوا يحملونه ، والدستور الإلهى الذى كانوا يبلغونه ، والنهار الواضح الذى كانوا يعملون فيه ، والخير المحض الذى كانوا يقدمونه للبشرية ، قوبلوا بالإنكار ، ووجهوا بالتكذيب ، وجوبهوا بالإعراض ، وأجيبوا بالرفض ، وقامت قيامة قومهم الذين اتهموهم بالافتراء على الله ، ولم تزل المشادة بينهم وبين هؤلاء وهم مع ذلك كله لم ييأسوا من رحمة الله ، ولم يقطعوا الأمل فى نصره ، وكانوا أحسن الأمثلة فى الدعوة إلى الخير ، والتوجيه إلى

---

(١) الظلم

السداد ، واختيار الطريق الأمثل للحياة الطيبة ، والسلوك الجاد ، والاستقامة الصحيحة ، والتقوى الخالصة ، إلا أنهم كانوا حلقات فى سلسلة طويلة كل واحد منهم يمثل واحدة من هذه الحلقات ، وكان هذا الذى انتهت به هذه السلسلة هو محمد صلى الله عليه وسلم ولا نبى بعده . . وربما بدا لبعض الناس أن يقفوا وقفة طويلة أو قصيرة عند هذه القضية يناقشونها أو يكذبونها أو يتطاولون على القائلين بها ونحن نرى أن دليلها من الوضوح والتسليم به بحيث يكون الكلام فيه نافلة[1] لأن الشرائع التى يرسل الله بها الرسل مبشرين ومنذرين إنما تكون فى حاجة إلى رسول لا حق إذا كان هذا الذى سبقه لم تكن شريعته قد استوفت كل ما تحتاج إليه البشرية من هدى وإرشاد ، وتقويم أو إصلاح ، وتهذيب وتشذيب ، وهى قضية مسلم بها لا يمكن أن يكابر فيها أحد ، وهكذا كانت شرائع هؤلاء الرسل مرتبطة بالزمان والمكان — إقليمية لمن جاءت إليهم — متناسبة مع الحركات الانتقالية التى كانوا يمثلونها ، فهى أشبه بالأشياء التى استنفدت غرضها — كما يقولون — فلما جاء صاحب

---

(١) أصل معناها الزيادة .

هذه الرسالة صلى الله عليه وسلم وكانت البشرية قد نضجت كانت رسالته عامة ، ودينه كاملا « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » صالحاً لأهل كل زمان ومكان ، فلا يمكن أن يتدارك عليه أحد نقصا ، ولذلك كان إرسال رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم مادام هذا هو وصفه من الرسالة والدين من العبث تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وليس بعد صوته الذى دوى فى هذه الدنيا صوت ، ولا بعد كتابه كتاب « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » ولم يكن هنالك شىء من التشريع ، ولا معنى من الهدى ، ولا بعض من الدساتير أو القوانين تحتاج إليه هذه الإنسانية لتحيط به بقاءها، وتحفظ به أمنها، وتكفل به سعادتها، وتضمن به هدوءها واستقرارها ، أو تجلب به رخاءها ، أو تعمل به على إشاعة الخير فيها ، إلا كان متضمنا له ، مشتملا عليه ، يعلنه للناس كما يعلن المؤذن فريضة الصلاة ، وهو بإجماع الناس كتاب أودع الله فيه من الحصانة وعناصر البقاء ما جعله يتحدى الأحداث ، ويصارع الزمن ، ويقاوم الخطوب ، وينتصر على عوادى الدهر ، لأن خصومه طالما قاوموه وحاربوه ، وكادوا له ، وصدوا عنه ، رجاء أن يميتوا ذكره،

ويسكتوا صوته ، ويصرفوا القلوب عنه ، فما كانوا إلا كما يقول هو نفسه ، « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » . ولم يعهد الناس كتابا[1] صمد للحوادث . ووقف للخصومة ، وأقام قيامة الدنيا ، وأخذ من الجدل الحار ، والمناقشة الحادة ، والمعارضة المغرضة ، والحرب الطاحنة ، والعداوات الخبيثة ، كهذا الكتاب الذى رد كيد الكائدين إلى نحورهم ثم خلد بعد ذلك خلود الدهر ، وظل مع ذلك كله شامخا شموخ الجبال ، هادرا هدير السيل ، زائراً زئير الأسد ، عاصفاً عصف الرياح ، يسخر من هؤلاء أو هؤلاء الذين ظنوا أنهم يعاندون القضاء ، وينازلون الخالق، ويتحدون إرادة الله ، وأنا أعجب وقد صار مدرسة للانسانية تأخذ منه الزاد النافع من العلم ، والشعاع الهادى من المعرفة ، والدواء الشافى من الأمراض ، وتلك الألوان من الخير ، وهذا المقدار من الفقه ، وهذه الأنماط من الذوق والأدب ، والبلاغة والبيان ، كيف تدير ظهرها له وتشيح بوجوهها عنه ، وتضمر له هذا الحقد الذى تسود به قلوبهم

---

(١) الوقوف فى بسالة وشجاعة .

وأفئدتهم ، وتغلى به جوانحهم ، فلا يصرفون له من الاهتمام والعناية ما يجعلهم على الأقل تلامذة لكتاب لا تنكر الحقيقة عليه أنه غير وجه التاريخ ، وبدل معالم الحياة ، وأنقذ الإنسانية من الفوضى والتخلف ، وهو بعد ذلك جديد من الحكمة وفصل الخطاب كان عليهم أن يصلوا أسبابهم به . . .

ما هو الدين

مع التسليم بالذى سبق أن قدمناه عن معنى الدين من كونه يدل على الخضوع والطاعة أو الجزاء يوم القيامة ، نرى أنه فيما يتعارف الناس عليه من معانيه — كذلك — أنه هو تلك التعاليم أو المبادىء التى يتحتم عليهم الأخذ بها فيما يجب أن تكون عليه علاقاتهم بالله جل جلاله ، من الامتثال والطاعة ، والرجاء والخوف ، والرغبة والرهبة والأمل فيه ، والطلب منه ، والعبادة له ، والوقوف بين يديه ، فإن لكل ذلك آدابا مرعية وسلوكا يتبع ، وأخلاقاً لا بد من مراعاتها ، وتقاليد لا بد من الالتزام بها ، كما أنه يعنى — أيضاً — ما لا بد من مراعاته فى صلة الإنسان بالإنسان، من المعاشرة الحسنة ، والتعاون المجدى ، والاختلاط الطيب ، والمعاملة الحلوة ، والحب الدائم ، والألفة التى تزداد على مدى الأيام زيادة وتمكينا ، وهذا الدين لم يكن من عمل الناس ، ولا جهود الإنسان ، ولا قوانين الأمم والجماعات ، لأن عقولهم قاصرة ، وأفكارهم محدودة ، وآراءهم لا يمكن أن تكون ثابتة ولا شاملة ولا محيطة بحاجات المخلوقات لتضع لها من النظم أو الدساتير ما يمكن أن يكون طبا

لامراضها ، وعلاجا لأوجاعها ، وتقويما لانحرافها ، وتهذيبا لطباعها ، وإنما هو صنع اللطيف الخبير الذى يعلم ما كان وما سيكون ، ويجعل لكل داء دواءه ولكل علة شفاءها ، ولهذا يقول سبحانه « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » ولعل أبرز دليل على ذلك هذا الاختلاف فى التمرد عليها ، ورميها بالقصور ، وادعاء أنها غير صالحة للزمان والمكان ، والمطالبة بتعديلها أو بتغييرها ويتأكد من ذلك كله من يتابع تاريخ دولة من الدول، أو أمة من الأمم ، ليرى كيف تقلبت عليها دساتير ، واختلفت نظم ، وتنوعت فيها أساليب حكم ، وهى لا تستقر على شىء منها ، ولا تظل على نظام إلا ريثما تستبدل له بآخر ، ولا يرضى فقهاء القانون اللاحق عن فقهاء القانون السابق ، وكأنما هم أهل جهنم « كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » ويقول أبو بكر جابر الجزائرى « الإنسان منذ أن وجد على هذه الأرض وهو فى حاجة ملحة إلى قوانين ضابطة تعدل من غرائزه . وتنظم سلوكه ، وتحدد اتجاهاته ، غير أن تلك القوانين المطلوبة لتعديل غرائزه، وتنظيم سلوكه ،وتحديد اتجاهاته فى الحياة لا توجد وهيهات[1]

(١) اسم فعل بمعنى بعد .

أن توجد — إلا فى تشريع ربانى سماوى لا دخل لأهل الأرض فيه، ولذلك كان الدين ضروريا للانسان بوضعه الخاص، يأكل ويشرب، ويتوقى البرد والحر، وعليه أن يعمل لإعداد نفسه بالسنن التى وضعها خالقه، ليهيىء طعامه وشرابه ولباسه ودواءه وسكناه ، وهذه حالة تدعو إلى تعاون الأفراد، لتوفير مابه تقدم حياتهم ، وتستمر إلى أجلها المسمى ، وهو بفطرته يشعر بضعفه وحاجته إلى ربه الذى يعينه ويوفقه ويرعاه، ولهذا يطلب التعرف إلى ربه ، وهذا بما يقدمه له من الطاعات والعبادات وضروب أنواع القربات ، ودعوى العقل الاستقلال بهداية الإنسان باطلة ، وذلك لأننا رأينا كثيراً من الأمم والشعوب لما فقدت هداية الوحى الإلهى لم يغن عنها العقل شيئا « ولقد مكناكم فيما إن مكناكم فيه وجعلنالهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانو يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون» ومن هنا وجب أن يكون مصدر التشريع للناس هو الله الذى يعلم السر وأخفى — كما يقول القرآن الكريم — وليس من حق الناس أن يحللوا حلالا أو يحرموا حراما ، وإنما الله وحده الذى يضع الدساتير والقوانين والواجب والمكروه بواسطة كتبه وعلى لسان أنبيائه

ورسله « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ومن الملامح التي تكون في التشريع الإلهي وتميزه على غيره من تشريع الناس .

أولا : عدم الحرج والمشقة حتى لا يمل المكلف ويحاول التحلل من المسئولية وعدم الالتزام بأسلوب أو بآخر ، والمبدأ العام في ذلك قول الله سبحانه « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

ثانيا : تقديس العقل الإنساني والسمو بالتفكير السليم ، ولذا نرى في القرآن الكريم تكرار مايدل على ذلك كقوله « ومايعقلها إلا العالمون » وقوله « أم لهم قلوب يعقلون بها » وقوله « إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

ثالثاً : لم يفصل الدين عن الدنيا ، لأن باغي الدين إنما يبغيه في الدنيا ، والدين نفسه تنظيم لشئون الدنيا ، ورسم لسياستها ، وبيان لأسباب النجاح فيها ، يقول جل جلاله « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من

الدنيا » ويقول كذلك « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

رابعاً : يدعو أصحابه والآخذين به ، والذين يجعلونه عقيدة راسخة إلى أن يلتزم الفرد والمجتمع بمبدأ « لا ضرر ولا ضرار » فليس لأحد أن يفعل ما يعود على نفسه أو غيره بالإيذاء أو الإيلام أو التنغيص أو القلق أو الاضطراب والبلبلة ، ولهذا ينكر الغصب والسرقة والرشوة والخداع والتمويه والزور والكذب والنفاق والرياء وهتك المحارم وإساءة استعمال النفوذ والسلطان ويقيم لذلك الحدود الرادعة .

خامساً : يعطى الظن الغالب حكم اليقين دفعاً للعنت[1] ومنعاً للحرج ، وسداً لباب القلق النفسى ، وخوفاً من أن يستولى على الأفهام اليأس من رحمة الله التى وسعت كل شىء ، كمن ظن أنه قام بالواجب ، وأدى ما افترضته

(١) المشقة وكلمة لأعنتكم فى القرآن أو قمكم فى المشقة .

عليه الشريعة ، فإنه يكتفى منه بذلك « وإنما الأعمال بالنيات وإنمـا لكل امرىء ما نوى » .

سادساً : يسوى بين الرجل والمرأة فى التكريم والاحترام ، والتكاليف والواجبات ، والأوامر والنواهى ، ويوجه إليها الخطاب ، ويلقى عليها المسئولية على اعتبار أنها نصف المجتمع ، ومع ذلك يوصى الرجل بها وصاة صادقة ، ويكلفه أن يوفر لها السعادة والنعيم ويجعلها تشعر شعوراً كاملا أن جنته تحت أقدامها . .

سابعاً : لا يعترف بالتفرقة العنصرية ، ولا الألوان والأجناس ، والغنى والفقر والناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

ثامنا : العمل الدائب، والتطلع الدائم ، والتقدم المستمر ، والمزيد من الخير ، والرقى الذى لا حد له ، والسبق فى ميادين الحياة ، شعاره فى الطاعة ، وعنوانه فى العبادة ، وطابعه الذى يتميز به على سائر أنواع الدعوات الإصلاحية ، والمذاهب الاجتماعية . .

والمتقبع لهذه الحركات الفكرية فى الأديان السماوية يرى أن أهلها والقائمين عليها كانوا يتجردون من الحول[1] والطول ، والغرض والهوى ، والعلة والغاية ، فلم يكونوا من هؤلاء الذين يتطلعون إلى ملك أو جاه وسلطان أو دنيا يصيبونها ، لأن هذه كلها تبلبل أفكارهم ، وتلوى مسيرتهم ، وتفسد عقيدتهم ، وتموه عقولهم ، وتحيطهم بالريبة التى تشكك الناس فيهم ، وتحولهم عنهم ، تأولئك الذين قال فيهم إنهم كانوا يجعلون تعاليم كتبهم قراطيس يبدون منها بعضا ويخفون آخر «وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » وقد ظلوا هكذا يتلاعبون بالأديان ، ويبدلون فيما نزل عليهم من السماء ، حتى تحولوا إلى فريقين متخاصمين يقول كل منهما أنا وحدى ، « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . وإذا كانوا يقولون إذا اختلف اللصان ظهر المسروق ، فإننا وقد عرفنا اختلاف اللصان لم نعرف أين ذهب المسروق إلا أنه قد صار فى ذمة التاريخ ، ولا يمكن أن نصدق

---

(١) القوة والجاه

دعوى أحد الطرفين أن ما يزعمه للناس شريعة متبعة ، أو وحى نزل من السماء ، وقد خاطب الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده .. الآية » وقوله « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » فاكتفينا به كبدل فاقد .

إلى متى يتخبط الناس

أنا مشفق جداً على هؤلاء الحيارى الذين يتخبطون فى هذا الليل المظلم فلا يعرفون إلى أين ينتهى بهم هذا السير الملتوى ، ولا تلك الخطا العمياء ، ولا ذلك الطريق الذى لا نهاية له ، « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » راحوا يحدثون مبادىء ، ويختلقون قوانين ، ويخترعون أنظمة ، زاعمين أنها هى التى تتمشى مع روح العصر أو المدنية ، ذلك لأنهم ذهبوا إلى بيئات غير شرقية ورأوا هناك عادات وتقاليد فيها من الانطلاق — الذى يسمونه الحرية — ما يبيح اللذات الجسدية بجميع أنواعها من غير ما حرج ولا لوم ، ورأوا أهلهم وذويهم فى البلاد العربية أو الشرقية لا يزال عندهم بقية من حياء ، وشىء من الأخلاق ، التى أخذوها عن الأوساط التى انحدروا منها ، أو الديانات التى وفدت عليهم ، أو نشأت فيهم ، وكانت هذه عندهم لها تقديرها واحترامها ، وهى تكبح جماحهم[1] ،

(١) تكبح تمنع وترد والجماح الشهوة والنزعة المسفة .

وتحذنزقهم[٢] ، وتقضى على نزوع الطيش والشر فيهم ، فأخذوا ينادون فى قومهم وأهليهم أن يتركوا هذا الجمود الذى هم فيه ، ويأخذوا بهذا السلوك الغربى من الاختلاط والعرى والحفلات التنكرية والليالى الحمراء ، والدعوة إلى الوجودية والاشتراكية والشيوعية ومذاهب أخرى لا يستطيع الإنسان أن يلاحقها عددا ، ولا أن يعرف أسماءها . وكل هذه تنتهى بأصحابها إلى أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، لكن لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر هكذا خبط عشواء ، أم ذلك مصحوب بدليل يذكرونه ، وبرهان يقيمونه ، وضجة يواجهون بها خصومهم ، لو أنه هكذا لقلنا هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، والعقل لا يحترم شيئا وراء العقل يطاحنه ويصارعه وينتصر عليه لأن خصومة العقل مأمونة العواقب محمودة الجدل ، لطيفة الضربات ، جميلة العجيج والضجيج،وهى مع ذلك أقرب رجاء للوفاق ،وأكثر أملا فى التلاق، لأنه لا يداخلها إسفاف ،ولا يصحبها شىء من الخروج على اللياقة والذوق ، لكن هؤلاء الذين يتمردون على الأديان أو

---

(٢) النزق هو الطيش .

ينكرون وجود الخالق ، أو يصفون الرجل الذى يتمسك بقيمه ودينه وأخلاقه بأنه رجعى يعود إلى طباع أهل الغابات والأحراش، وليس له من ذنب يستحق به ذلك إلا أنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويلتزم الجادة الصحيحة فلا ينافق ولا يكذب ولا يتهاون فى عرضه وشرفه ويحب للناس ما يحبه لنفسه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا تقوم خصومتهم على برهان ولا دليل...
ومنذ أكثر من ستين سنة جاء قاسم أمين من فرنسا يدعو إلى السفور واختلاط النساء بالرجال فقام فى وجهه الكتاب والأدباء وأنكروا عليه الصيحة ، وما كنا ندرى أن هذه الصيحة كانت هى الإرهاص الذى يسبق المعجزة ، وأننا مقبلون على حياة أخرى ،وأن هؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم براذع للاستعمار — كما كان يقول سعد زغلول — سيأتون بالكثير من عوامل الهدم التى كان يرجو الاستعمار أن يصل إليها ، وأن بعض هذه الاحزاب السياسية التى قامت حينئذ بحجة طرد المستعمر ، كان فى مقدمة مبادئه « حرية الفكر » وبعنوان حرية الفكر هذه ظهر زنادقة وملحدون كان لهم أثر فى انحراف الشباب وشكه وعدم اطمئنانه إلى عقيدة الآباء

والاجداد ، ولعل مما ساعد على ذلك تلك الموجة العارمة التى أخذ أنفسهم بها أولئك الذين يسميهم الناس « رجال الأديان » وهى موجة اصطنعوها للجدل فى الأديان من ناحية صحتها وبطلانها وصلاحيتها لأن تكون قانوناً مرعياً ، أو دستورا متبعاً ، وكان ذلك كله يقوم على الغمز واللمز ، والطعن والتجريح لا أكثر ولا أقل ونظمت جماعات من هؤلاء وهؤلاء حملات ورصدت لها الأموال الطائلة لا لشىء إلا الطعن على الدين الذى لا يدينون به ، ولم نجد بحثا واحدا ، ولا محاضرة واحدة ، عالجت مرضا ، أو قاومت خطرا ، أو حاربت انحرافاً ، أو هذبت خلقا أو طبعا ، وأنا أقول إن تسعة أعشار العالم لا يزال يقف موقف المتفرج وهو فى حاجة إلى المنطق الذى طرحه كثير من أرباب الدعوة إلى الله ولا يزال هذا السواد الأعظم تثور فيه نزعة التدين وهو يود صادقا جاهدا أن يشفى غليل نفسه ، ويروى ذلك الأوام[1] الذى جف منه ريقه والتهبت أحشاؤه ،

---

(١) الأوام على وزن غراب شدة الظمأ

والمنطق أيها الناس هو حديث الفطرة والطبع والذوق والإحساس والضمير والعقل والفكر ، فلماذا تعادونه وتخافون منه ، يقول — أيضاً — « أبو بكر الجزائرى » « إن المسلك السهل والسليم فى آن واحد ، للبحث عن الإيمان بالله والتصديق به ربا وإلها ، هو مسلك احترام العقل البشرى ، وقبول أحكامه التى يصدرها على الأشياء نفياً وإثباتا » ومن هذا المنطلق الذى يقول به هذا العالم الفاضل نقول إن العقل قانون البشرية جمعاء ، ميز الله به الإنسان على سائر أنواع الحيوان ، وهو مناط التكليف فى أبناء آدم وبنات حواء وبدونه يصير الناس إلى الجنون الذى لا يرضى به إلا البهائم ولا يقبله إلا العجماوات ولقد يتهاون الرجل معك . أو يغضى عنك ، إذا وصفته بشىء يزرى به،أو ينال من عرضه وشرفه ، لكنه لا يتهاون ولا يغضى إذا وصفته بالجنون ، ذلك لأن العقل وسام من الشرف ، وتاج من العزة ، يتلاشى أمامه كل شىء ، ويتضاءل له كل كبير . . . ويقول الأستاذ فريد وجدى « فاجأ الإسلام الناس بمبدأ لم يكونوا يحلمون به ، ولا يتوقعون أن

يسمعوه وهو قوله صلى الله عليه وسلم « الدين هو العقل ، ولا دين لمن لا عقل له وكانت سنة قادة الأديان من قبل — كما قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر — أطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى ثم عزز الإسلام هذا المبدأ بمبدأ ثان ليس بأقل منه شأنا وهو النعي على التقاليد والموروثات ، وعلى المقلدين للآباء والأجداد بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا[1] عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ومع هذه الأقوال التي نقلناها فإن كثيراً من الناس إذا ما واجهته بهـــــذه الحقائق المرة ربما زعم لك — كأنما يتخلص من الحرج الذي صار إليه — أن الدين قانون يربط المرء بربه رباطا روحيا ، ولا شأن له بعد ذلك بدنياه ، ولا سلوكه مع الناس وارتباطه بهم ، ومنافعه المتشابكة معهم ، مع أن ذلك محض افتراء ، وقد ذكر القرآن الكريم الميراث والوصية والبيع والرهن والربا والتجارة والدين والشهادة والسرقة والغصب والإجارة والسلم والحرب والسلم والشفعة والجوار ولم يقتصر شأنه على العبادات وإنما ذكر المعاملات كذلك وهو

---

(١) وجدنا .

دليل على أنه دستور دين ودنيا فى آن واحد ، وبهذا فهمه[1] أسلافنا من العلماء الأعلام ، وقال أحد خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ضاع منى عقال بعير لو جدته فى كتاب الله مبالغة منه فى أنه جاء جامعا لكل شىء من أمور الدين والدنيا . . .

(٢) السلف الذين سبق وجودهم والخلف الذين جاءوا بعد ذلك .

اليسر والعسر

التدين — كما سبق لنا بيانه — حنين إلى تلك القوة الخفية التى يشعر الإنسان أنه مرتبط بها ارتباطا قويا ، ومنجذب إليها انجذاباً شديداً ، يجعله كأنما قد اقترن مصيره بها ، وانتهى أمله إليها، يعتمد عليها ،ويستعين بها، ويعمل جاهداً مجهوداً لنيل رضاها ، ولذا فإنه لاينفك يتقرب إليها بالطاعة ، ويتوسل إليها بالعبادة ، ولا تفارق خاطره ، أو تغيب عن قلبه ، إلا أن هذا الارتباط ، أو ذلك التعلق ، وهذه الطاعات أو العبادات ، لايقصد منها إلا أن تكون عنواناً على الاتصال الدائم ، والارتباط الأكيد ، وإذا كانت الأعمال التى يقوم بها المرء من التكاليف المفروضة ، أو الواجبات المحتومة ، لا تختلف فى الدلالة على هذا المعنى الذى يتحتم أن يكون قائما بين العبد وربه ، لذلك فقد وجب فيها عدم الالتزام بما يشق على الإنسان ، أو ينوء به ظهره ، وقد يكون ذلك مدعاة إلى الملالة والنفور ، والكراهية والزهد ، ولا يرضى الدين بحال من

الأحوال أن يرهق أهله وأتباعه هـذا المقدار من الإرهاق ، إنما يكفى فى ذلك القليل وأقل من القليل، مادامت النية متوفرة، والإخلاص فيها متحققا ، وليس من الطاعة أو العبادة أن ينقطع المرء كل الانقطاع عن عمله ، أو ينصرف كل الانصراف عن تحصيل رزقه ليمد يده بعد ذلك إلى الناس ، يعطونه من فتات موائدهم ، وفضلات أرزاقهم ، وهو ما يتنافى مع كرامة الإنسان ، ويهبط بوضعه فى المجتمع الذى يعيش فيه ، ولذا كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يخاطب به بعض أصحابه « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » والمنبت الذى يرهق دابته بالسير رجاء أن يسبق الركب ناسياً أن ذلك يعطبها[1] ويلحق بها الضرر ، وتكون النتيجة من هذا الإجهاد ، كلالها[2] وإعياؤها وعدم صلاحيتها للركوب فيما بعد ، وهنا يتجلى معنى قوله « فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وهكذا تكون العبادة يسرا لا عسرا ، وسهلة لا تعقيد فيها ، وخفيفة لا ثقيلة ، لأن الذى يلتزم بها ، ويعطيها من اهتمامه وعنايته هذا المقدار ، له من شئون

---

(١) العطب الهلاك .

(٢) ضعفها .

عيشه ، وإدارة أعماله ، وطلب رزقه ، ما يستدعى منه وقتاً وجهداً وتفكيرا وعناية كذلك فى الحديث « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » والأخذ منهما معا يتطلب الإنصاف فى توزيع العمل والجهد وكان أسلافنا يتناقلون فيما بينهم أن الدنيا والآخرة كالضرتين . . إذا أنت أرضيت إحداها أغضبت الأخرى « وأن تعدلوا أقرب للتقوى » والآية الكريمة الأخرى « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وفى آية أخرى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وربما كنا قد اقتنعنا — منطقيا — أن الولاء المعبود ، والضراعة له ، والارتباط به ، وحضوره بالخاطر دائماً أبدا ، لا يجعل فى الاعتبار كثرة البراهين ، ولا تنوع الأدلة ، وإلا كان الحال كما يقول ابن الرومى :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله
وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى
عند الورود لما أطال رشاءه

لكن شيئا واحدا نحب أن نلفت النظر إليه وقد وصلنا إلى معنى تلك القوة الخفية التي قلنا إن الانسان — منذ الأزل — يشعر بأنه مرتبط بها هذا الارتباط الذى يحمله على الخوف منها ، والأمل فيها ، والاحتماء بها ، والتأليه لها ، ذلك الشيء هو أن توهمها بهذا الوضع ، وتخيلها على تلك الصورة ، وتعقلها على هذا الوجه ، ينفي عنها التعدد والشركة نفيا طبيعيا ، وما دام الذى يتجه إلى تلك القوة يخلع عليها من نفسه هذا التصور البالغ حدود الكمال — وأكثر من الكمال إذا كان ذلك مما يدخل في التصور — فإنه لا يمكن إلا أن يكون تعامله معها على أساس التوحيد ، واعتقاد الوحدة — كذلك — وهو كذلك نوع من اليسر الذى نريد أن نركز الحديث عنه ، وإذا كانت الكتب التي درسناها — أو ندرس فيها علم التوحيد تهتم هذا الاهتمام بإثبات الوحدة للخالق جل ثناؤه ، وتذكر لها الأدلة الكثيرة ، فإنما تفعل ذلك للتأكيد لا أكثر ولا أقل ، وهذه الوحدانية أشبه شيء بالبديهيات التي لا تحتاج إلى برهان يؤكدها ، أو حجة تؤيدها :

وليس يصحح فى الأذهان شىء

إذا احتاج النهار إلى دليل

ومع كون هذا النهار لا يحتاج إلى دليل — كما يقول المتنبى — فإن هؤلاء الذين يريدون زعزعة الأفكار، وبلبلة الآراء، واضطراب العقول، وفساد الضمائر، أحاطوا فكرة الألوهية بالغموض، وطوقوها بالألغاز، وشوهوها بالخرافة، وأضافوا إليها كثيرا من السفاسف، جعلتها تكاد تكون هراء، وكأنما كان القرآن الكريم يريد أن يقول لأمثال هؤلاء على طول المدى «وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا[1] بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين» وقد كان أساتذتنا وهم

(١) أبسله سلمه للهلاك

يدرسون لنا علم المنطق يقولون فى تعريفه .. إنه علم تعصم مراعاته من الخطأ فى الفكر ، وكانوا يقولون عنه أيضا إنه « ميزان العقول» ولعمرى ماذا يضير هؤلاء الذين يلتوون فى سيرهم العلمى — أو العقائدى — سير الأفعى لودرسوا علم المنطق ليعرفوا بواسطته كيف تكون الاستقامة فى الفهم ، والاعتدال فى الرأى ، والصواب فى العقل ، والسلامة فى الوقوع فى الخطأ ، ليريحوا أنفسهم من شناعة هذا الجهل ، وبشاعة هذا الضلال ، وبخاصة فى تلك الأمور التى ترتبط بالمصير الأخير « يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » وقد كنا نظن أن العلم يقوّم النفوس ، ويهذب الطباع ، ويطهر القلوب ، وينير البصائر ، ويجعل المشاعل بأيدى أهله ، إلا أن فألنا قد خاب ، وظنوننا قد أخطأت ، وصار العلم الذى جعله الناس من وسائل الدمار ، وعوامل الفتك ، سبيلا إلى الغى ، وطريقا إلى الضلال ، ومنفذا يدخلون منه إلى قلوب العامة لاضطيادها وإغرائها وتحويلها عن الجادة الصحيحة ، ونحن أمام ذلك كله مازلنا ننصح بالعلم ، وندعو إليه ، ونرغب فيه ، ونعتقد أنه إذا انحرف العالم ، أو زاغت بصيرته ، أو ضل رأيه ، أو التوى فكره ، أو شك عقله ، فإن المصباح فى يده على كل

حال ، لا بد أن يكشف له الطريق ، وينير له السبيل ، ويحدد له معالم الحقيقة ، وشبابنا أمام هذه التيارات ، وتلك المنعرجات ، لا ينجيه إلا العلم الذى يأخذه من مصادره الصحيحة من الكتب والأساتذة ، وإذا كنا فى حاجة إلى أن نقول هذا القول فى وقت من الأوقات ، فإن هذا الوقت الذى نحن فيه والشيوعية الحمراء تريد أن تكتسح العالم يقتضينا أن نلح فيه ، ونؤكد عليه — كما يقولون — لنبقى على كياننا وحقيقتنا وتاريخنا وأخلاقنا ثم أنسابنا وأعراضنا كذلك « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد » وأرجو أن أكون قد بلغت . . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين .

توحيد البشرية

البشرية فى نزوعها إلى الوفاق ، وميلها إلى السلم ، ورغبتها فى تلاقى الأهواء ، وجمع الشمل ، واتحاد الرأى ، والألفة والمودة ، والهدوء والاطمئنان ، والأنس والحب ، وعدم النفور أو الكراهية تستجيب للفطرة ، وتنساق للطبع ، وترضى ميولها التى تتوق إليها غرائزها وسجاياها ، لأنها مهما اختلفت فى الأجناس أو الرغبات أو الأوطان ، تنتهى إلى أب واحد ، وأم واحدة ، وليس هنالك عرق يدنى المتباعدين ، أو يؤلف المختلفين، أو يقرب الشقة النائية،والمسافة الشاسعة ، كهذا العرق الذى تسكون وشيجته الأبوة والأمومة ، ولذلك لم نجد فى لغة التخاطب فيما بيننا كلمة تهز الوجدان ، وتوقظ العاطفة ، مثل كلمة أخ أو أخت ، يقولها الرجل أو المرأة ، للرجل أو المرأة ، إذا خطر بينهما الشيطان ، أو قام بينهما خلاف، فلم يلبث أن يزول ذلك كله إلى غير رجعة ، وهنالك يسود الصفو ، ويحل الوفاق محل النفور ، وتهب على الطرفين ريح الرضا والارتياح ،

والعفو والمغفرة ، ولذلك كله كانت عناية المربين والمصلحين — فى كل زمان ومكان — أن تظل هذه الوشيجة قائمة بين أبناء آدم وبنات حواء على اعتبار تمسكينها واستقرارها ، وجعلها دائما أبدا موصولة، تشبه مايسمونه إقرارا للأوضاع، لأن هذا الإنسان الأول الذى انحدرت منه تلك البشرية جمعاء ، منذ أن أخبر جل جلاله الملائكة عنه بقوله « إنى جاعل فى الأرض خليفة » كانت رسالته فى هذه الدنيا العمران والازدهار ، والنمو والتقدم ، والإصلاح والرقى ، وتوفير كل مامن شأنه أن يحقق لهذا الجنس السعادة والرفاهية ، وذلك كله إنما يتأتى فى ذلك الجو الذى تسوده الألفة والمحبة ، والأمان والاطمئنان، والقبول والإقبال ، ولا يعلم إلا الله ماهو هذا السر الذى جعله يفقد هذه المعانى كلها ، فيتحول فيه هذا المخلوق الوادع إلى حيوان كاسر غادر ، لايحب الخير ، ولا يألف الهدوء ، ولا يميل إلى المعروف ، ولا يطمئن إلى البر ، ولا يستريح إلى الفضيلة ، ولا يرغب فى الإنصاف ، ولا يحب الحق ، ولا يطرب لجريان الأمور فى مجاريها، وإنما يعيش هكذا يصارع النور، ويألف الظلمة ، وينحدر إلى الهاوية ، ويظلم نفسه دون ما رشاد ولاهداية ، أو وعى وإدراك «وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن

مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون » وإرسال الرسل الذين كانت الإرادة العليا تتفضل بهم ما بين وقت وآخر مبشرين ومنذرين كان القصد منه أولا وبالذات — كما يقولون — أن تظل هذه الأواصر مرعية بين أولئك الذين وفدوا على هذا الوجود من أب واحد وأم واحدة ، حتى لقد قام بذهن بعض الناس فى وقت من الأوقات أن لغة التخاطب يمكن أن تكون مساعدا على زوال الخلاف والفرقة ، والنفور والكراهية ، فحاول أن تكون لغة واحدة وهى ما عرف باسم « الإسبرانتو » كما حاول غيره من غير من قبل باسم ما يسمى « المدينة الفاضلة » وحاول إفلاطون ما سماه « جمهورية أفلاطون » وكتب كثير من الأدباء والمصلحين محاولات أخرى بعناوين مختلفة ، وهى كلها أدلة على أن الفطرة الإنسانية تنادى بالعيش الأمثل ، والسلوك الحميد ، أو الاجتماع المادىء الوادع ... ومن الغريب الذى لا يمارى فيه أحد أن هذا الانتكاس الذى حل بأبناء آدم وحواء هو الآن محل الشكوى ، أو علة العلل ، والناس هاهنا وهنالك يجعلونه مجال دراسة وتفكير لإزالتها، إلى أن يكون الناس إخوة متحابين ، تربط ما بينهم وشائج القربى والنسب ، حتى لا تكون هنالك فجوة ولا تقاطع ،

وخصومة وحروب ، وعداوة تكدر الصفو ، وتقلق الخاطر ، وبجعل العيش مشوبا بالمرارة التى تبغض الحياة ، وبخاصة بعد أن صارت رقعة البسيطة مليئة بالشرور والآثام ، والنزاع والمشادة ، والصراع الذى لانهاية له وأصبحت المؤسسات الدولية عاجزة العجز الكامل عن كبح جماح المعتدى ، ودفع طغيان الضال ، ورد طيش المجرم ، وصد تطاول الأحمق ،ووقف تجاوز الجاهل ، وربما كانت تلك المواهب الذى ظهرت فى مختلف البقاع من الكرة الأرضية تشبه هذا الذى يصفونه بأنه رد فعل ، أورواسب تخلفت عن تلك المعاناة ، وهى فى جملتها من غير تعرض إلى حكم عليها من ناحية الصواب والحق ، أو الخطأ والانحراف ، أو تجاوز حدود الاعتدال ، محاول « توحيد البشرية » على نهج واحد يربط ما بينها ، فلا يكون هنالك شذوذ ، أو اختلاف فى الأهواء ، وتباين فى الاتجاهات ، أو تناقض فى الميول،لأن لذلك كله مضاره وشروره ،والله سبحانه وتعالى وهو يعلم أن ذلك سيكون لا محالة ، قد دعاهم إلى أن يركزوا جهودهم فى الاتجاه إليه ، والاعتماد عليه ، والدعاء له ، والطلب منه ، والوقوف بين يديه ، وأن يعبدوه مخلصين له الدين ، وكان بذلك كله يجمع قلوبهم على ربوبيته ، ويربط أهواءهم بوحدانيته ،

ويملأ نفوسهم بالاعتقاد الذى لاشك فيه أن تماسك أفرادهم من أوجب الواجبات ، وتلاقى أفئدتهم من أجمل الغايات ، فماذا عليهم وهم لا ينفكون عن عبادة هذا الذى لا ينكرون عليه أنه الخالق البارئ أن يتدارسوا — من جديد — السبيل الحق فى الامتثال له ، والتقديس لذاته ، والقيام بما كلفنا به ، وطلب إلينا أن نحصله ، لنكون بهذا قد قمنا بالواجب ، واعترفنا له بالفضل ، وانتهينا معه إلى حدود الأدب ، وكلنا يصلى له ، ويفزع إليه ، ويطلب منه ، ويعتقد اعتقاداً جازما أنه رب العالمين ، مالك يوم الدين ، لا ينازعه جبار ، ولا يشاركه مسلط ، أظن أن هذه البشرية التى تربط ما بينها هذه الروابط التى تمكن لهذه الأخوة فى نفوسها كان الأجدر بها ألا تكون من هؤلاء الذين تقول فيهم الآية الكريمة « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » وكل يدعى وصلا لليلى — كما يقول الشاعر — وأنا أعيذهم أن أضيف لهم المصراع الثانى من البيت ، ولا سيما ونحن فى عصر بلغ العلم فيه مبلغاً ما كانت الإنسانية تحلم به ، أو تتخيل أنها ستصل إليه ، وإذا كانت الوسائل الجديدة — الآن — لما يسمى « التكنولوجيا » قد استطاعت أن تقطع على الناس تكهناتها وخرافاتها ، وهى تحق الحق ، وتبطل الباطل ، فهل ننتظر منها ذلك اليوم الذى تجمعنا على قلب رجل واحد فيما يجب

أن نأخذ به من الأمر والنهى ، والحلال والحرام ، والإيمان والكفر والزندقة أو الإلحاد ، وفى اعتقادى أننا بقليل من المنطق ، وقليل من التروى والنظر ، نستطيع قبل أن تصل إلينا هذه الوسائل العلمية الجديدة أن نلتقى عند نقطة واحدة ، وهنالك لا يكون اختلاف ولا تفرقه ، ونحن أبناء آدام وحواء التقينا فى أبوة واحدة ، وأمومة واحدة ، ورب واحد دبر هذا الكون وأحكم نظامه ، ومن الحمق أن نختلف فى وضح النهار ، ولنا عقل ، ولدينا منطق ..

الأديان الثلاثة

أكثر الناس اهتماما بالإصلاح الاجتماعى ، والأخذ بما هو أقوم سبيلا ، وأحسن سلوكا ، وأولى اتباعا ، وأجدى عائدة وفائدة ، لترفرف على البرية راية السلام والأمان، والعدل والإنصاف والحرية والإخاء ، والبر والمعروف ، والحب والمودة ، والطمأنينة والراحة ، والسعادة والرخاء ، فلا يشكو إنسان ظلم إنسان ، ولا يكدر أحد الصفو على آخر ، وإنما تكون الحياة نعيما على طول المدى ، وهناءة ورغدا على الدوام ، هم حملة مشاعل الهدى السماوى الذى جاءت به على التعاقب اليهودية والنصرانية والإسلام بعد ذلك وذلك ، ولا مرية أبدا فى أن الأديرة والكنائس والمساجد تنبعث منها دعوة الحق إلى هذه النفوس الحيارى ، والأفئدة الضالة ، والقلوب التى ران عليها الجهل والعمى ، والشك والتردد، أو الغواية والطيش .

ونحن لا نمارى فى أن الحق لا يختلف فيه أحد ، ولا يتنازع عليه اثنان ، وكل أولئك الذين نصبوا من أنفسهم هداة للصواب ، ودعاة للبر ، ومرشدين إلى سبيل المؤمنين ، لا ينكر واحد على أخيه ترغيبه فى الحق ، وإغراءه بالإنصاف ، وإيقاظ عقول الناس إلى ضرورة الالتزام بمكارم الأخلاق ، لما لذلك كله من الأثر الطيب الذى يوفر المناخ الحلو للحياة السعيدة التى يمكن أن ينعم بها الناس ، ويستريح الأفراد والجماعات ، هذا فيما يتصل بالسلوك الإنسانى الذى تتكفل به الآداب والتربية السليمة ، والتهذيب الصحيح ، أما مايتعلق بعقيدة المخلوق فى الخالق ، أو إيمان العباد بالمعبود، والتجائهم إليه ، إذا حز بهم أمر ، أو نالهم مكروه ، أو أصابتهم محنة ، أو نزل بهم شر ، أو حل بهم ضيق ، واضطروا تحت تلك الظروف القاهرة كلها أن يقولوا « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » فإن هذه أيضا لا مجال للخلاف فيها ، أو النزاع عليها ، والأدلة كلها من فوقنا ومن تحت أرجلنا وعن أيماننا وشمائلنا تنادى بأن الله الذى « أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ، لا نراه بالبصر ولكن بالبصيرة ، ولا نحسه

بالعيان ولكن بالسريرة يملأ هذا الوجود من حولنا وإن كان ذلك من غير تحيز ، ويصرف هذا الكون بحكمة اللطيف الخبير ، وإذا كانت هنالك مناهج فى البحث ، أو أساليب فى الدرس ، أو مقدمات لتلك النتائج ، فهى لا تغير من الحق ، ولا تباعد فى المسافات ، أو تشوه شكل الغاية التى ننتهى إليها جميعا — أو يجب أن ننتهى إليها — ما دام رائدنا هو الحق ، وغايتنا هو الله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، وقد قلنا إن المنطق — الذى يزعم الزاعمون أنه لأرسطو — فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا ينكره أحد ، ولا يخالف فيه إنسان ، ولا يمارى فيه عاقل، لأنه يساوى قول القائل إن الواحد نصف الإثنين ، والنار محرقة ، والملح يذوب فى الماء ، يدركه الصغير والكبير ، والعالم والجاهل ، لايختص بثقافة ، ولا يتفاوت فى البيئات عنه فى غيرها ، وإنما هو قضية واحـدة يذعن لها المرء إذعانا تلقائيا ، والخلاف الذى يوجد بين إنسان ينقاد له وآخر ينقاد له كذلك ، إنما هو التعليل لا أكثر ولا أقل ، فأحد الرجلين قد تسأله عن انقياد قلبه للأمر فلا يستطيع إلا أن يقول لك وجدت من وجدانى اطمئنانا ، ومن عقلى قبولا ، ومن فؤادى ارتياحا ، ومن ضميرى

هوى وميلا ، ولا يزيدك عن هذا كله تعايلا ولا تحايلا ، في حين أن هذا الذى قومه العلم ، وصقلته المعرفة ، وأضاءت بصيرته الثقافة يريك من ميله إلى الشيء ، وقبوله له ، أو انسياقه إليه ، واعتقاده فيه ، أو ترجيحه له على غيره ألف دليل ودليل ، ولا فرق بينهما إلا ما يكون بين الحب الأعمى وغيره في لغة الصبابة والهوى وكلاهما حب على كل حال ، وقد آن الأوان لكي نقول لأسيادنا الذين يتصدرون للدعوة إلى الله ، ويرشدون إلى ما يجب له من إجلال وتنزيه ، وتقدير واحترام ، وعبادة ونسك ، ودعاء ورجاء ، ورهبة ورغبة ، وتضرع وابتهال ، وصلاة وصيام ، واعتماد وتوكل ، إن الحيرة التى تعانى منها الإنسانية ، والأوجاع التى تقاسيها ، والتفكك الذى تدركه ، والآلام التى تحس بها ، والتخلف الذى أصابها ، والحروب التى تحصد نفوسها ، والدمار الذى يهددها ، والشؤم الذى يلاحقها ، لا يجدى معها أن يكون لأبناء الأب الواحد ، والأم الواحدة ، وجهات نظر لا تتلاقى عند نقطة واحدة وبخاصة فى هذه الأوقات التى صار فيها المصلحون الاجتماعيون ينادون بضرورة السلام فى الأرض ، ولا يكون السلام بالقلوب المتنافرة ، والأهواء المتباعدة ، والإيمان بالله جل وعلا من طرق تلتوى ولا تلتقى ،

وحجج تتباين ولا تتعاون ، وأدلة تتمارض وتتعارض ، ومنطق يتهاوى ولا يتداوى .. وإذا كانت هذه الأديان السماوية الثلاثة قد فرضت وجودها منذ أزمان ، فإن إساءة الإعلان عنها ، والدعوة إليها ، والتنويه بها ، والخصومة حولها ، والافتراء على الله باسمها ، قد جعل عشرات الأديان الأرضية تزاحمها وتقطع الطريق عليها ، وتصد الناس عنها بحجة أنها لم تؤالف القلوب ، ولم تجمع الأهواء ، ولم تزل الفوارق ، ولم تقض على الضغائن ، بل إن القحة قد بلغت ببعض هذه أن تقول « إن الدين مخدر الشعوب » كأنما يرون أن الارتباط به ، والإذعان له ، والاعتقاد فيه ، نوع من التخلف الفكرى أو الحضارى ، لاتنهض به الأمم ، ولا تتقدم به الشعوب ، والسبب أولا وقبل كل شىء أن الدعوة إلى الله لم يتملك زمامها الأكفاء الجديرون بالتقدير من الأجيال المعاصرة لهم ؛ والذين كان من الممكن أن يستفيدوا منهم ، وينتفعوا بهم « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » وكأنما كان هذا الصوت من الملأ الأعلى — كما جاء فى أحد هذه الكتب الثلاثة — يصور تلك الحال التى وصل إليها

هؤلاء فاستحقوا منه هذا التنديد الذى يزرى بهم ويسىء إليهم ، ويكشف عن هذا الضعف الذى ابتلاهم الله به ، فتفلت الزمام من أيديهم وصاروا عبرة لمن يقرأ تاريخهم ، ويتعظ بما أصابهم ، ليعلم علما لا شك فيه أن الله لا ينصر إلا من يخلص له ، ويؤمن به ، ويضرب بسيفه ، ويعلن حقه ، ويدافع عنه ، ويدعو إليه ، ويجاهد فى سبيله ، فإن نافق فى ذلك ، أو تخلى عن الواجب ، أو موه فى الحق ، أو صد عن القصد ، أو أقام السدود والحدود ، فهو بذلك كله يحارب مولاه ، ويتمرد على سيده ، ونرجو أن يكون لهذه الكلمات صدى فى نفوس رجال الأديان الثلاثة ليؤمنوا أن أصواتهم تذهب أدراج الرياح إذا لم يجمعوا الناس على باب المولى يخصونه بالعبادة ، ويفردونه بالرجاء ، ويدينون له بالوحدانية ، ويعتقدون أنه فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فليعملوا لذلك إن كانوا جادين .

رقم الإيداع بدار الـكتب ٥١١٢ لسنة ١٩٧٩
الرقم الدولى ٤ — ٣٠٥ — ٢٦٦ — ٩٧٧

